

FÜRCHTENDE HERTZEN

مغتربة إرلنغن

AUS WANDERIN VON ERIANGEN

ندى نوفل

داركتاب للنشر والتوزيع



مسئول النشر

طارق رمضان

مدير التوزيع

عمر عبد السميع

مدير العلاقات

مها عادل

الطبعة الأولى

الكتاب : قُلوبٌ وَجِلةٌ

تأليف : ندى نوفل

تصنيف الكتاب : رواية

مصمم الغلاف : مروة صلاح

إخراج : أحمد عبد الرحمن

المقاس ١٤ × ٢٠

رقم الإيداع : ٢٠٤٠١ / ٢٠١٨

الترقيم الدولي : 5 - 23 - 6597 - 977 - 978

العنوان : ٤٧ تقاطع الفلكي مع محمد محمود - القاهرة - مصر

التليفون : ٠١٠٩٧٥٥٣٣٢٨

Email : darkitabone@gmail.com

إهداء

إلى روحٍ طيبةٍ قد فارقتنا وتركت لنا أثر ابتسامته التي كانت تغلق عينيه بشدة من وراء نظارته الطبية، إلى الذي كان دائمِ القول:

- سررت بحديثكِ، سررت بلقائكِ.

إهداء إلى

أبي العرّاب أحمد خالد توفيق .

شكرًا لاحتوائك عقولنا الفارغة....

إلى الطبيب الذي ساعدني في محور الواقع داخل هذه الرواية.

ندى نوفل

الحيــاة ؟! ماهــي إلا طريــق يجــب عليــك العبــور فيــه كي تصــل لمبتغــاك، حيــث تقرأعــلي أحــد الإشــارات بــه إن كل مــا سـعيت لأجلــه، ســعي لأجلــك.

ندى نوفل

مراد!

تفضل ياإلياس.

أراك لم تنتهي من فنجان قهوتك بعد . لقد أتى السيد الذي ينوي شراء بيتك، إنه في الخارج ينتظر هو وأسرته كي يشاهدوه.

كما سمعت أن هذا الرجل من أصول عربية يرجع أصله إلى لبنان متزوج من امرأة ألمانية، وإنه كان يعمل في مجال السينما،

أجل فلتدعه يدخل :

- رفع الرجل قبعته لإلقاء التحية

- مرحبا دكتور مراد .

- مرحبا بك سيد نذار.

وبذوق رفيع من الرجل قال: يالها من موسيقي رائعة.

- فضحك إلياس متفوها :

- أجل فهذه سيمفونية الحب الخالد خاصة بيتهوفن المفضلة لدى صديقي الدكتور مراد ولتعلمون أنه ليس جراح قلب وحسب بل إنه ناقد موسيقي أيضا .

لقد شاهدت البيت مع الأسرة وأعجبنا كثيراً نويت شراءه، حينما رأيت صوره في الإعلانات، وأريد أن أبتعه بكل محتوياته فما رأيكم دكتور مراد ؟ أجل قبلت .

إذن فلتسمح لنا أن نشاهد البيت بأكمله

إلياس:

- إذا وددت أن توصل السيد نذار والأسرة الكريمة إلى الداخل.

-أجل تفضل : أتمنى أن يكون البيت قد نال إعجاب حضرتكم

- أجل بالطبع ولن نترك هذا البيت فقد حاز على إعجاب الأولاد بشدة.

مراد لقد ذهبوا واندهشوا كثيراً من نظام البيت وأطلقو عليه اسم البيت الكلاسيكي وأحبوه أيضا، ولا زلت مكانك تشرب قهوة، أوحقًا تريد أن تبيع بيتك ! فإنه يوجد به ذكرياتك وأجمل أوقاتك التي قضيتها مع إيمان .

- لم أعد قادراً على العيش بمفردي ياإلياس، لقد مرت خمس سنوات على رحيل إيمان، والقطعة الحية التي كانت منها رحلت هي الأخري، كل شيء يذكرني بها حتى كدت

أتحـدث مـع نفـسي كالمجنـون أعصـابي اصبحـت غـير منضبطة.

ليتنـي لم أتـذوق تفاحـة العاشـقين تلـك فكنـت لم أصـب بسُـم الهـوى القاتـل .

– وما عساك أن تفعل الآن ؟

لا تقـول أنـك سـتبيع البيـت وتتنـازل عـن الجنسـية وتعـود لكـي تسـتقر في مـصر .

– لا لقـد نويـت السـكن مـع مجموعـة مـن الأطبـاء الألمـان أصدقائـي .

– حسناً

– سـوف يأتيـك السـيد نـذار غـدا ومعـه محاميـا مـن أجـل توقيـع عقـد البيـع

– إذن سـتبيعة بـكل محتوياتـه وماسـيحدث للعـم يـس ؟ فقـد قـام بخدمتـك طـوال هـذه المـدة ومنـذ تلـك المـده لم يكـن لـه ولـد أو حتـى أقـارب يسـألون عنـه .

– مـاذا سـيفعل انـه رجـل مسـكين، لا لم اقصـد مضايقتـك بحديثـي ياعـم يـس:

- أمـا أنـا فـلي رب كريـم، يمكننـي أن أغـادر وأعـود إلى مـصر لقـد أصبحـت كهـلا، ولتعلـم أنني لم أسـأم مـن خدمتك قـط ياسـيدي .

- ياعـم يـس :لا أريـد أن أسـمع منـك هـذا الحديـث مـرة أخـرى، لأنـك سـتبقى معـي إذا غـادرت فتغـادر، وإذا مكثـت فتمكـث، فأنـا لم أرَ حنـان والـدي وقـد شـعرت بـه منـك، ألا تتذكـر عندمـا كنـت صغـيرا كنـت آتي إليـك ركضًـا كـي تلعـب معـي بالكـرة، وعندمـا كنـت أصر بـأن آخـذك معـي أينـما كنـت حتـى لم أتـردد لحظـة في أخـذك معـي إلى ألمانيـا أحيانًـا كنـت أغـار عندمـا كانـت تجلـس إيـمان عـلى حافـة حـوض الـورود وتتحـدث معهـا وتضحـك هـيَ ضحكاتهـا الطفوليـة، وبعـد ذلـك أكتشـف إنـك تقـص لهـا الأشـياء السـيئة عـن طفولتـي، فـلا تقلـق لقـد حدثـت أصدقائـي الجـدد وموافقـون عـلى خدمتـك لنـا.

ووقـع د. مـراد وأبي عقـد بيـع البيـت بالـتراضي، وتـرك مـراد المنـزل....

أُمسيات حواء في ألمانيا

[Evas Abend in Deutschland]

ولم أنسى تلك النظرة الدامعة الساكنه على الخد المتحركة في أرجاء البيت حزينًا على فقدان ابنته التي لم تتجاوز الثلاث سنوات والتي بسببها اراد بيعه وتركه يحمل حقائبه التي بها كل متعلقات ابنته وبعض متعلقات زوجته الراحلة الهاربة على حسب ماسمعته من همسات بينه وبين صديقه السيد إلياس، وأنها تدعى إيمان تمنيت لو أرى تلك السيدة التي جعلت شخصًا كدكتور مراد جراح القلب المشهور وناقد الموسيقى المعروف تاعسا بائسا غير مرتوي هكذا، فنظرة عيونه المنكسرة تروي قصة حب ضائعة أو مفقودة في ثنايات الزمان، وكأن حياته تشبه لحيوان أليف هادئ الطباع واقف على حافة جبل الألب لا القفز ينجيه، ولا المكوث يجديه، ولا الطريق مضمون ليلا يهديه .

ومكثنا واستقرينا في منزلنا الكلاسيكي الجديد الذي لازال عالقا به عطر لامرأة قد تناثر في جميع أركان وزوايا البيت وكأنه أقسم بألا يرحل ومر عام في منزلنا الجديد وتخرّجت من المعهد العالي للتمثيل والإخراج السينمائي ببرلين وذات يوم كنت قد سئمت من الجلوس في البيت فسولت لي نفسي أن أدخل حجرة المكتبه التي بها بابا زجاجيا مطل يفتح في الحديقة كي أبحث عن كتاب أقرأه.

ودخلت تلك الحجرة التي بها مكتب ضخم من التويد وكرسيان مخمليان يقبعن فوق سجادة شرقية وعلى أحد الحوائط تحفة فنية سيريالية نصفها مطلي والآخر ملصق مرسومة بألوان حادة متموجة مكونة من أجزاء متباينة الحجم متنافرة الألوان، ومكتبة كبيرة مليئة بالكتب وما أكثر هذه الكتب ؟

ووجدت أكثرها من كتب الأدب الرومانسي العربي المترجم بلغات مختلفة منها رواية الحب تحت المطر لنجيب محفوظ وقصيدة الاشتياق للبارودي، وكبرياء وهوى وغيرها الكثير من كتب الطب والفلسفه والاجتماع والموسيقي .

وعندمـا كانـت تجـول يـدي بـين هـذه الكتـب انطـرح شيء ثقيـل عـلى الأرض فنزلـت ألملمـه فماهـي إلامفكـرة صـماء مـن هيئتهـا الكلاسـكية فكانـت تقفل وتفتح بواسـطة ربـاط منقوش عـلى ظهرهـا بعـض من معـالم مـصر السـياحية كـما يوجـد عليها طابـع بريـدي مـصري فأخذتهـا وتناوبنـي الفضـول في قراءتهـا فأخذتهـا وبهـا إلى غرفتـي وبسرورٍ حللـت عقدة الربـاط وفتحت أولى صفحاتهـا مدونـة بتاريـخ كتابتهـا مخطوطـة اليـد باللغـة العربيـه واللغـة الألمانيـة وكنت أجيـد العربية مـن مزاملتي لأحد الأصدقـاء مـن اللاجئـين السـورين الذين كانـوا معـي في المعهد، وأخـذت تشـدني إليها كي أغـوص في كلماتها وأحتظـي بحروفها.

فوجـدتُ، أحيانـا نـرى الاشـتياق في رسـالةٍ مكتوبـة تحـت ضـوء القمـر تكـون أصـدق مـن اللقـاء، بعـض الصلـوات التي تقـام في المستشـفيات تكـون أحيانـا أكثـر صدقـا مـن الصـلاة في المسـاجد والكنائـس، ولـن تجـد الأنثـى تمـارس العنـاد إلا مـع رجـل متكـبر .

دائـما تجـد التجربـة الأولى تكـون قاسـية، أصـدق الكلـمات هـي التـي تكـون مختبئـة بـين السـطور تلـك التـي كُتبـت بتنهيـدة مـن القلـب، دائـما هـي اللحظـات الأولى فقـط مـن كل شـيئ تـترك في نفوسـنا أثـرًا جميـلا لاننسـاه مهـما أتـى بعدهـا

مـن مشـكلات . اللحظـة الأولى مـن نجاحـك، مـن سـفرك، مـن مسـتقبلك، مـن زواجـك، طفلـك الأول، اللحظـة الأولى مـن الحـزن، السـعادة، الأمـل، الألم .

أدعى إيمان :

مجـرد فتـاة عاديـه شـأني كشـأن باقـي الفتيـات حُلمـي أن أنتهـي من كابـوس الثانويـة العامـة، ترعرعت في أسرة متوسـطة الحـال في قريـة مـن قـري الريـف المـصري، يعمـل أبي موظفا في شركـة الأقطـان في المحافظـة التابعـة لهـا قريتـي، أمتلـك أختـان الكـبرى زينـب متزوجـة، تمكـث معنـا هـي وصغيرتهـا في فـترة غيـاب زوجهـا الـذي يعمـل معلـما بالخـارج، والصغـرى مريـم في أوائـل المرحلـة الإعداديـة، تعمـل أمـي ربـة منـزل .

أرى مـن كل شيء لامـع وبسـيط مجـرد أن يقـع بـين نظـيري أجعـل مـن كل شيء حولي يسـتحق الإعجـاب به، وبعـد الانتهاء مـن المرحلـة الثانويـة التي يدعونهـا شـبح البيوت المصريـه، أتاني تنسـيقها بالالتحـاق بكليـة ألسـن ألمـاني، وذهبـت مـع أسرتي إلى الإسـكندرية لقضـاء الأجـازة الصيفيـة وحضـور حفـل زفـاف مجـدي ابـن عمنـا فكنـا نُعـد لأسرة عمـي الهدايـا اليدويـه الريفيه لهـم، حيـث كانـو يسـتقبلوننا بفـرح وسرورٍ، وكنـت قـد ابتعت بعـض الكتـب لتعليـم اللغة الألمانيـة، وتعليـم قواعدها لتسـهيل

أمر الدراسة معي، وأخذت تلك الكتب معي إلى الإسكندريه، وكأنني لا زلت لم أنتهي من المرحلة الثانوية، وكانت تلك الكتب لاتفارقني حتى عند ذهابي إلى الشاطيء، وظلت رفيقتي إلى ان أتي يوم الزفاف، وقاموا جميعا بتحضير أنفسهم وبضغط من زينب وضعت القليل من أداوات التجميل بعد إلحاح شديد منها ولمّا رأني أبي جالسة أمام المرآة تبسم قائلاً :

كفاكِ ياجميلتي فإن هذه الأدوات لاتزيد ملامحك إلا الكِبر فملامحك الطفولية الجميلة لا تحتاجها البته.

وذهبنا جميعا متجهين نحو قاعة الزفاف فوجدنا عمر ينتظرنا خارج مقر الحفل، ولكنة ألفت الانتباه إليه عندما كان يطيل النظر إليّ وفجأءة رن هاتفي الخلوي إذ هي صديقتي أروى ومن شدة الضوضاء وقفت بعيد كي أتمكن من محادثتها، ولما رآني ودخل الجميع في الداخل وقف ينتظرني وكأنه يتناوبه الفضول لكي يعرف مع من أتحدث فتقدم نحوي ووقف بجانبي بارتباك في الحديث أخشى أن يضايقك أحدهم وأنت تقفين بمفردك ولكي أصطحبكِ إلى الداخل.

فقلت: حسناً.

وأوصلني إلى المنضدة التي بها أسرتي وظل طوال الحفل لم يمل من النظر إليّ ولا أدرك لماذا أنا أيضا منشغلة به وبنظراته؟

أعترف أنه كان أجمل شاب بالحفل، وسرعان أتت فتاة ووقفت معه تحدثه وهو يحدثها وينظر لي فوجهت وجهي أمامي ولا أعرف ماسبب هذا الهذيان الذي احتلني مجرد أن رأيت تلك الفتاة معه وأتى بها إلينا كي يعرفها علينا بأنها صديقته مني وزميلة دراسية له ولكن كان سطحي الخارجي يدل عليه غير ذالك من برود أعصاب .

ولما انتهى حفل الزفاف وذهبنا إلى البيت أخذوا جميعا يلقون عليه بالحديث عنه وعن صديقته وما أدري فما وجدت نفسي إلا أن أستأذن من الجميع كي أخلد إلى النوم، ولما حل الصباح أمرنا والدي بإمتاع حقائبنا استعدادًا للرحيل حيث حزن عمي حزنا شديداً من قرار رحيلنا المفاجئ معتقدا أن أحدًا ما قام بإزعاجنا، فهدئه أبي قائلا:

- كفى يا أخي لقد قضينا أجازة ممتعة ولكن ظروف عملي لاتسمح لي بالمكوث أكثر من ذالك، كما أن إيمان سوف تذهب إلى دورات لتعليم اللغة الألمانية قبل التحاقها بالجامعه لذا يجب علينا الرحيل .

ورحلنا مع السلامات الحاره بالوداع، وظللنا نعرف أخبار بعضنا البعض عن طريق منشوراتنا على صفحات التواصل الاجتماعي.

وبدأت الدراسة وتعرفت على صديقاتي لارا وأمينة ومع مرور وقت ليس بالكثير أصبحنا في رابطة صداقة قويه وكانت أمينه مخطوبة إلى جارها محمد أما لارا فكان ينشأ بينها وبين ابن عمها إلياس قصة حب الذي يدرس الطب في ألمانيا حتى أخبرتهن بما دار بيني وبين عمر من نظرات وأفعال منذ كنت في الإسكندريه وبصوت واحد منهن إنها قصة حب مُبهمة تحتاج الجرأة من أحدكم.

وذات يوم كنت واقفة أمام باب الجامعة انتظر الحافله التي توصلني قريبا من قريتي وكانت كلا من لارا وأمينه ينتظران معي حتى تأتي الحافلة ثم يذهبن إلى بيوتهن فهم من نفس المدينه التي بها الجامعة فكنت واقفة أُعطي للطريق ظهري بسبب مانسمعه من حديث سخيف من بعض الشباب المارين علينا ووجدتهن يحدقون بشيء ما ورائي وتتهامسان عن شاب وسيم للغاية يأتي متجها إلينا وما وجدتة إلا هامسًا لي قائلا :

- هـل لنـا أن نتعـارف ؟ وبعنفـوان وجهـت وجهـي نحـوه فوجدتـه عمـر ابـن عمـي وبارتبـاك شـديد في نظـرات بينـه وبـين الفتيـات أعرفكـن عمـر ابـن عمـي يـدرس في الهندسـة الميكانيكيـة وأخـذ يسـألني عـن أحوالي وأحـوال أسرتي ثـم قال :

- إذا وددتِ أريـد التحـدث معـك منفـرداً هـل تسـمحين لي؟ فنظـرت إلى صديقـاتي فهمسـتا لي أجـل فلتذهبـي، ولكـن سـوف تقصـين ماحـدث بينـك وبـين ذاك الوسـيم فيـما بعـد، وتركتهـن وذهبـت معـه إلى أن دخلنـا حديقـة عامـة، وجلسـنا فـكان مرتبـكا ومرتجـف اليديـن قـدّم لي حلـوي قائـلاً:

فلتتنـاولي منهـا قطعـة فإنهـا تعمـل عـلى الاسـترخاء، مـن أجـلي تنـاولي وأخـذت منهـا قطعـة فقـام بمسـك يـدي وتفـوه بتلـك الكلمـة التـي تزلـزل الأعـماق أنـا أحبـك كـم كنـت أتمناهـا مـن داخـلي ولكننـي سرعـان مـا قمـت بنـزع يـدي مـن يـده بشـدة وتركتـه وذهبـت فحـاول اللحـاق بي، وغـادرت بحجـة التأخـير في وصـولي إلى البيـت فحـاول إيقـافي مـرة ثانيـة يريـد أن يعـرف جوابـا عـلى ماقالـه وبحـزن شـديد أجبتـه :

- بأننـي لم أسـمع حديثـك يـا ابـن العـم وتركتـه والتحقـت بالحافلـة وفي نفـسي أنـا أيضـا أكـن لـك المشـاعر، ولكننـي لا أسـتطيع أن أحطـم علاقتـي مـع ربي وأنهـي ثقـة أبي بي .

ووصلـت إلى البيـت ومـا زال ذاك الموقـف ومـا حـدث في مخيلتـي، مماجعـل كل مـن في البيـت يدركـون هيامـي وشرود فكـري، فأثـر عـلى نومـي وطعامـي وشرابي وظللـت طـوال الوقـت أراقـب متصفحه الالكـتروني وقامت كل مـن لارا وأمينة بتوبيخـي بـكل مـا فعلته سـوى الأنانيـة وجـرح المشـاعر وإهانة الكرامـة وقلـما عرفـت عنه شـيئا أشـعر بضيـق في صـدري فأقوم بتأنيـب نفـسي إلى أن انتهـت المرحلة الأولى مـن الجامعة بالحصول عـلى درجـة الامتيـاز مـع الترتيـب .

وهاهـو في أول يـوم في دراسـة السـنة الثانيـة وجدتـه أمـام بوابـة الجامعـة ينتظـر وبيـده باقـة ورود بيضـاء راكـع أمامـي يوجههـا نحـوي ومـا عـن هـذة اللحظـة في داخـل كل أنثـى فلفـت جميـع الأنظـار إلينـا ولمـا باتـت عينـي أن تدمـع وقـف صامـدا أمامـي مترجيـا بـألا أدمـع وكأنـه أُسـقط إلى عالمـي سـهواً قائـلاً :

-اقبلينـي فأنـا سـوف أكـون لـك صديـق ومحـب وحـام، وسـيرنا سـويا إلى تلـك الحديقة وجلسـت أنظـر إليه خائفـةً قلقةً لأننـي لا أسـتجدي الوسـطية ولا أقبـل المناصفـة فإنـه شـاب وسـيم وكـم رأيـت الفتيـات يركضـن وراءه فقاطعنـي وقـال:

- لـك أن تمـضي الآن إلى قلبـي واخلعـي نعليـك واعتـلي العـرش فإنـك عالمـي المحـوري والأبـدي، أعلـم جيـدا أنـكِ تضعـين فهرسـا مـن أجـل زوجك المسـتقبلي، أعلـم أنـكِ تتمنين رجـلاً قـارئً مثلـك وأنـا أُمَـلُّ مـن القـراءة، ولكنني مـن أجلك سـأبتاع الكتـب واكـون قـارئ حتـى اتمكـن مـن مزاولتـكِ مـن اعـلي جـوادي الأبيـض حتـى أسـتطيع أن أذهب معـك إلى جزر المالديـف ونحـن جالسـين في أماكننـا .

ومـا أنا إلا سـعيدة وفرحة أنظر مـن نافذة الحافلة أسـأل نفسي إلى أين سـتقودني سـاقي أين سـتذهب شـخصيتي الحازمـه؟ فدار صراع عقـلي وقلبـي حيـث يسـأل العقل ويجيـب القلـب وتيقنت أنـه حـين يحـل الحب يتنـافى العقـل والمنطـق ويفوز القلـب في كل جـدال ومصنفـات هـذا العقل الملغـي لا يبقي لهـا أي وجود .

حـين يـأتي الرجـل الـذي تحفـظ المـرأة مشـاعرها مـن أجلـه، لا تسـتطيع أن تتفـوه بـأي كلمـة، تهبـه قلبهـا دون نقـاش. أجل، فـما فنحـن إلا ضعيفـات أمـام من نعشـقهم، حتـى ولـو تظاهرنا بقوتنـا .

ووصلـت إلى البيـت بملامـح السـعادة، ودارت الأيـام بيننـا نتحـدث في الهاتـف خفيـة نعـرف أخبـار بعضنـا عـن طريـق الرسـائل النصيـة إلى أن يـأذن الله لنـا وينتهـي مـن دراسـته

ويــأتي لخطبتــي، وبــدأت أتعلــق بــه شــيئا فشــيئا أخــاف ألا أحدثـه فيجـول في خاطـرة بأننـي لم أعـد أهتـم بـه وأخـاف أن أحدثـه بكثـرة فيمـل مني فـكان ثائـرًا عاشـقا قـد جُـن .

وبــدأ بعمــل خارجــي بعــد داومــه مــن الجامعــه حتــى يتمكــن مــن تكويــن ثمــن شــبكتي، وذات ليلــة أخــبرني بأنــه ســوف يتحــدث مــع والــده مــن شــأن موضــوع خِطبتنــا وبينــما أحدثـه كشـفتني زينـب وقالـت :

– مـع مـن تتحدثـين هامسـة هكـذا يا إيـمان؟! في هـذا الوقت المتأخـر وبعنـوة أخـذت زينـب الهاتـف وقالـت بعنفـوان مـن معـي؟ ولكنـه صمـت ثـم أغلـق الهاتـف وفي الصبـاح أرسـلت لـه رسـالة نصيـة أطمئنـه فيهـا بأننـي بخـير فأجابنـي برسـالة أخـرى لـن يفرقنـا سـوى المـوت فاطمئنـي ثـم بعدهـا بقليل من الوقـت أتـت إليَّ زينـب موجهـة يدها نحـوي بإسـلوب يحمل في طياتـه التهديـد ؛ اسـمعيني جيـدا فلتخـبري ذالـك العاشـق أننـا نريـد أن نـراه ونريـد أن نعـرف إن كان جـادا أم يريـد التلاعـب. وظلــت تعاملنــي معاملــة ســيئة حتــى قطعــت الحديــث معــي، ومــرت الأيــام القليلــة وفاجــأني باتصالــه قائــلا لي :

–لاترحـلي الآن فانتظريني في موقف الحافـلات فأنا في طريقي إليـكِ، ووقفـت أنتظـره حتـى أمطـرت السـماء فوقفـت أحتضن

ساعديّ بقبضة يدي، ووجدته يأتي إلي مسرعًا وقام بتقبيل جبيني، وقال بصوت هادئ لا تقلقي فأنا معكِ ولن أتركك وأخذ يسألني عن معاملة زينب معي وقبل يدي وقال:

-سوف آتي لطلب خطبتك في القريب العاجل، ولكن كل ماعليكِ فعله أن تتحلي بالصبر قليلا فإني قد وجدت عملاً بعيداً عن مجال دراستي، ولكن هذا لا يهم فأنا أنتظر أن آخذ أول راتب لي من عملي هذا كي أبتاع من أجلك محبس الخِطبة .

وبالتالي نجح في إقناع والده على خطبتنا وفي صبيحة هذا اليوم اتصل عمي بنا وتحدث مع والدي وكل ما قاله بأنه سوف يأتي مع أسرته يوم الخميس القادم وأخبرنا أبي بذلك، ظللت أنظر إليه لكي يقول أي شيئ آخر أو أن عمي قد أخبره بسبب مجيئه فتفوهت دون أن أشعر ألم يخبرك عمي بشئ آخر فتعجبوا جميعا من سؤالي. ولما رأيتهم ينظرون إليّ باندهاش قلت :

أتمنى لو أنه أخبرنا بسبب مجيئه أخشى ألا يكون قد أصابه مكروه فإتيانه على غير سابق موعد شيء مقلق ومكثت أعد الأيام وأحصيها وكأنها في عناد معي لا تريد أن تتقدم كي تقدم لي يوم الخميس، وأتى يوم الخميس ووصلوا جماعة

عمـي وانتظـر عمـى حـين حـل المسـاء وفاتـح أبي في موضـوع خطبتنـا فهمـس أبـى لزينـب لتأخـذ رأيـي وقصصـت لزينـب قصتـى أنـا وعمـر ودون أن تأخـذ زينـب إجابتـى خرجـت مسرعـة لتخبرهـم بالموافقـه، فنـاداني أبي كـي أجلس معهـم .

وجلسـت خجلة حتـى اسـتطعنا أن نتبادل النظـرات المسروقة وانقضـت مراسـم الفاتحه وألبسـني خاتـم الخطبه كنـت فرحة لا أريـد شـيئًا سـوى ذالـك، وانتهيـت مـن الدراسـة وتخرجـت من قسـم الأدب الألمـاني بدرجـة امتيـاز عـلى التوالي .

تعلقـت بـه شـيئاً فشـيئاً، ولم يمـر الكثـير عـلى تخرجـي مـن الجامعـة وذات يـوم أتـى إلى البيـت رجـل البريـد يحمـل لي ظرفـا يريـد توقيعـي عـلى استلامه وحينـما اسـتلمته ومزقتـه وجدتـه طلـب اسـتدعاء مـن الجامعـه يـوم الثلاثـاء مـن يـوم اسـتلام تاريخـه في المظـروف فقمـت بإخبـار عمـر والجميـع فوافقـو لي بالذهـاب مـن أجـل معرفـة الغـرض مـن هـذا الاسـتدعاء .

وذهبـت إلى الجامعـة في الميعـاد المحـدد لي في المظـروف واتجهـت قاصـدة حجـرة عميـد الكليـة الـذي أخـبرني بـأن لي بعثـة لتكميـل دراسـتي أي الماجسـتير والدكتـوراه بألمانيـا منحـة مـن قِبـل الدولـة، أمـا إذا لم أرد السـفر فعـلي أن أتنـازل عنهـا لمن يريدهـا بمقابـل مـادي قـدره ثلاثـون ألـف جنيـه، وأخـبرني أن

فتـاة تنازلـت لزميلـة لهـا وقـد قدمـت التنـازل عـن هـذه البعثـه بـأوراق تثبـت حجـة منعهـا للسـفر لمـرض أو مـا شـابه مـع العلـم أن البعثـه مقدمـه لأوائـل خريجـي الدُفـع ثـم قـال :

-ولـكِ الأمـر إذا شـئتِ، وخرجـت مـن حجـرة العميـد شـاردة كيـف تسـمح لي أسرتي بالسـفر إلى أوروبـا بمفـردي فإنـما العـادات والتقاليـد لهـا ومعهـا الحـق دائـماً ومـاذا عـن زواجـي لقـد اقـترب موعـد العـرس ؟ فقابلنـي دكتـور طـارق الشرقـاوي معلمـي في قسـم الأدب الألمـاني حيـث سـألني عـن سـبب مجـيء ؟ فأخبرتـه مـن شـأن الاسـتدعاء فنظـر إلى قائـلا:

ومـا أنـتِ بفاعلـه ؟ فكانـت إجابتـي لا أدري كـما لا أدري إن كان أهـلي سـيوافقونني عـلى الرحيـل أم لا ! مـاذا عنـك أنـتِ؟، ومـاذا عـن طموحـك ؟ أجبتـه بالتأكيـد السـفر للمسـتقبل أود أن أحصـل عـلى شـهادة الدكتـوراه .

ولكن ؟!!!

ولكن ماذا ؟؟

فـإن مجتمعـي يعيـب الأنثـى ولايعيـب الرجـل إلا سـوى فقـر جيبـة، فـإن مجتمعـي يطلـق عـلى كل كلمـة أنثـى إنهـا الخطيئـة والخاطئـة دائـماً، فأنـا أعيـش في مجتمـع

ينعتنـي بالنقـص فأخـرج لي ورقـة بهـا جميـع أرقامـه قائـلاً :

إذا أردتِ شـيئا فماعليـك سـوى الاتصـال فشـكرته وذهبـت أفكـر في ردة فعل أهلي متيقنة الرفض مـن أسرتي وعمر، وإذا عمر يتصـل هاتفيًـا بي كـي يطمئن ويعرف مـا جرى معـي فتهربت منه في الحديـث واتخـذت ضجيـج ضوضاء السـير والسـيارت حجة كـي أنهي معـه المحادثـه وظللـت أفكر وأفكـر في عـادات الريف التـي دائمـة الحـق والميـول العقـلي معهـا منـذ القِـدم، أفكـر في التغلـب والانتصـار عليهـا تلـك العـادات الريفية السـاذجة التي تمنعنـي مـن تحقيـق حلمـي، ولكـن إذا حاربتهـا أعلـم جيـدا إنها أولاً وأخـيرًا هـي مـن سـتنتصر لأن أكبر القـوى في تحالـف معها أشـعر وكأننـي داخـل حلبـة مصارعة أصـارع وأقاتـل ضد رجل قـوي وأنـا امـرأة ضعيفـة بالرغـم مـن أن حـروف تلـك الكلمـة -عـادات- مؤنثـة إلا أنهـا تسـتند عـلى شـيئ أصيل قـوي يحميها أشـعر وكأنـه محـارب أسـبرطي قديـم يعـرف كل فنـون القتـال وأنـا ضعيـف الجسـم غير قادر عـلى حمل السـيف المذهـب تلك، أو كأنهـا شيء قديـم مقـدس يخـاف النـاس اقترابهـا فتهلكهـم كنـيران جهنم التـي أعـدت للكافرين، كيـف يمكننـي أن أتغلب عليهـا مـن أجـل الحصـول عـلى مسـتقبل جيـد يفيدهـا أولا.

ووصلت البيت وإذا أسرتي تنتظرني ليعرفوا ماحدث، وأخبرتهم بأن لي بعثة من قبل الدوله ولن أتكلف بأي مصاريف سوى المصاريف الشخصية الخاصة بي، أما إذا رفضت تلك البعثه سأتنازل عنها مقابل أموال ضئيلة، فالمنحة لأوائل خريجي الدُفع. أنا أحدثهم ويطرأ على وجهي ملامح الحزن، ثم قمت بتبديل ثيابي فدخل أبي حجرتي يخبرني بموافقته على سفري وبسرعة تغيرت ملامح وجهي العابسه إلى ملامح ضاحكة واحتضنته متسائلة، وكيف لي أن أذهب ؟ ماذا ستخبر الناس ؟ وقد يقولون ويروجون إشاعات وأقاويل باطلة ضدك يا أبي سيقولون سمح لابنته بالسفر إلى أوروبا بمفردها. إنني لا اطيق أي كلمة تهز مشاعرك يا أبي كما أن قومي لن يغفروا لي زلاتي .

رد حينها بابتسامته الجميله لا تقلقي ياعزيزتي فأنا والدك وأنا من سيسمح لكِ، ومهما بلغت الأحاديث والأقاويل ومهما بلغ بي عناء الناس لن يكون أكبر من شعوري، إنني أرغمتك على قطع طريق مستقبلكِ وأنه لايوجد فرق بين خطيئة الأنثى التي لا تغتفر وخطيئة الذكر التي في العرف والعادات تغتفر .

وخرجنا سويا من غرفتنا حيث أمي وأخواتي فكانت ردت فعل أمي بأنها لم ترضخ بسفري لأنها لم تتقبل فكرة رحيلي، فقالت زينب: --وما رأي عمر إذن؟ لا أعرف فأنا لم أخبره لأنه كان في عمله ولا يجوز له التحدث في الهاتف أثناء العمل، وعندما قمت بالتصفح على وسائل التواصل الاجتماعي فما وجدت الارسالة من لارا تخبرني بأنها سوف تذهب إلى منحة في أوروبا ولأن إحدى الفتيات تنازلت عنها لها مقابل مبلغ من المال وكم هي مسرورة جدا لأنها ستسافر إلى ألمانيا حيث إلياس و كم تتمنى لو أرافقها في تلك الرحلة وما كان جوابي إلا أني لا أدري، ولكن ما أراده الله لن يوقفه بشر وأنهيت معها الحديث، وقمت بوضع الهاتف في التيار الكهربائي وبعد ساعات من الوقت نادتني مريم تخبرني برنين الهاتف وتقول: وامعتصماه يا إيمان !

فركضت نحوها وأخذت الهاتف كي أجيب على عمر وكعادته بدأ حديثه المعسول الغزلي ولا أعرف لماذا حين أتلفظ باسمه؟ تتلون وحدتي وأخذنا الحديث إلى أن سألني عن موضوع استدعاء الجامعة لي فقصصت عليه الأمر وما هو إلا صامتا وانتظر إلى أن انتهيت من حديثي، وكل ماتفوه به وماذا يروق لكِ؟ فصمت قليلا ثم أجبته : بأنني أريد

الرحيل من أجل الحصول على شهادة الدكتوراه، أما عن الزواج ستتزوج أولا إذا أردت ثم أغادر بعد الزواج وما هو إلا صامتا وأخذت أتحدث عن الأحلام والمستقبل إلى أن أخذني الحديث وأنا أقنعه بالرحيل معي فهناك ستوجد فرص عمل في مجالك، وما هو إلا صامتا وأنهى المحادثة بأن أختار بينه وبين السفر، وعندما أجد الحل المناسب لي أخبره وقام بإغلاق الهاتف .

وظللت في حيرة من أمري مابين المستقبل والبقاء فإن تقف في المنتصف وأنت تريد الشيء ولا تريده هذا أصعب شئ قد يمر على المرء طوال حياته، وكأن الروح حائرة كوقوف النفس في منتصف الصدر لا تعرف كيف تستخدمه كشهيق أم زفير ولا أدري لماذا هذه الليلة أطول ليله شاهدتها نفسي وانتظرت حتى الغد إلى أن أتى أبي من عمله، وقلت أريد أن أتحدث معك في شيء، وصعدنا إلى سطح البيت وأخبرته ما جرى بيني وبين عمرَ، فقال أبي :

-وما الذي ترغبي به ياعزيزتي ولتعلمي أن مايجول في نفسك والذي ستتخذيه قرارا سيكون أصلح لحياتك ؛ لذا عليكِ التفكير جيداً فعندما وجدتك تميلين إلى السفر والترحال فلن أمانعك وسأقف بجانبك في كلتا الحالتين.

ولما علمت أسرتي بالأمر قامت أمي بتأييد عمر أما عن زينب ومريم فقالوا:

-لا يجدر بعمر أن يقضي على مستقبلها وعيشتها بهذه الطريقة، بل يجب أن يكون بجانبها فطلب مني أبي أن أقوم وأتوضأ وألجأ إلى الله واستخيره وأستشيره في أصلح الطريقين.

قمت متفوهة بوداع يا أحلام العشرين عاما فتقرير المصير فليكن ما يكون واستخرت الله وءاتتني رؤية بأننا مجموعة من الطلاب نسير من أمام ميناء مليء بالسفن الضخمة نرتدي تلك الثياب السوداء لباس خريجي الجامعات ومعي حزمة من الورق أتصفحها فأخبرت أسرتي بشأن الرؤية فأخبروني من شأن معرفة عمر، ولكنني لا أدري كيف سأخبره بقراري فقالت : زينب إذا لم تريدي أن تخبريه أنتِ فدعيني أخبره بنفسي فرد أبي : لا يازينب فهذه حياتها هي واختيارها فلتخبره هي .

فاتصلت به مترددة ولا أعرف من أين أبدأ حديثي وأتساءل، بل ماهو عليه أنا الآن تُدعى أنانية أو أنني فتاة مغرورة تركت حبيبها من أجل السفر، ولكن هنا قد حل دور العقل وتنافى أمر القلب المذبوح قائلا :

ولكن هذا هو المستقبل، وفجأءة صوت تنهيدة عمر ظللت صامتة لبعض الدقائق، بدأ هو الحديث أتمنى أن

تكـوني قـد اتخـذت قـراركِ. وعندمـا بـدأت التحـدث قاطعنـي الحديـث قائـلا:

-فهمـت مـاذا تريـدي أن تقـولي مـن نـبرة صوتـك إنـكِ تريـدي الرحيـل إلى ألمانيـا وأنـا لـن أقـف في طريـق مسـتقبلكِ ولتعلمـي يـا ابنـة العـم أنـكِ سـتنولين مـا تتمنـين حتـما، وهـا هـو العـالم يفتـح ذراعيـه لـكِ يسـتقبلك بأحضـان الفـرح والكفـر والظلـم والحـزن والشـقاء، ولكـن اعلمـي لـن يظـل فـاردا جناحيـه لـكِ طـوال الوقـت .

وبدمـوع صاحبـه مـاذا تقصـد ياعمـر؟ رد بإسـلوب لم أعرفـه مـن قبـل أعنـي لايجـوز لنـا أن نكمـل سـويا، وليذهـب كل واحـد منـا في سـبيل مسـتقبله، وأنـه قـد انتهـى بنـا الأمـر إلى هـذا الحـد، وليكمـل كل منـا في طريقـه وأغلـق هاتفـه، فحاولـت الاتصـال بـه مـرة أخـرى أتمنـى أن يقـول لي أريـدكِ أن تبقـيِ فحاولـت الاتصـال بـه ثانيـة فأغلـق هاتفـه نهائيـا .

ومـا أنـا إلا تعيسـة بائسـة، لزمـت الفـراش ثلاثـة أيـام، وفي اليـوم الرابـع عـلى لزومـي الفـراش أخـذت أفتـش في حقيبتـي عـلى تلـك الورقـه التـي سـتوصلني إلى د. طـارق، ومـن هنـا قـررت أن أنسـى المـاضي وأمـضي قدمـا .

ولكننا سنظل شاردون في هذه الدنيا دون اتجاه تقلبنا الرياح إذا أرادت خاضعين إلى الهوان بالتراضي، وهاتفته وأخبرته بأنني سوف أذهب إلى ألمانيا وأريد أن أعرف الأوراق المطلوبة من أجل السفر وأخبرني بأنه سيأتي معنا في البعثة وأنه سيكون المشرف علينا طوال البعثة، كما حدثت لارا وأخبرتها فكادت تطيح الفرحة من عينهاعندما علمت بأمر سفري معها، ويتطاير الحب كالبخار في السماء لايبقي إلا الذكريات القاتلة كلما عصفت بقلوبنا قتلت الأمل ويبقى دوما مأثورا حيث الأمل البعيد .

وانشغلت في تحضيرات السفر من تغيير عمل والكشف الطبي وتحضيرات أوراق المنحة الدراسية التي كانت في جامعه من جامعات ولاية «بيارن» الألمانية ألا وهي بافاريا بألمانيا الجنوبية التي عاصمتها ميونخ التي تقع في شمال جبال الألب . وقبل رحيلي بأيام اتت جماعة من القريه ومعهم صديق والدي العم حسن غير راضين عن سفري قائلين:

-كيف تسمح لابنتك بالسفر إلى أوروبا بمفردها فلا بد أن تمنعها .

-لماذا؟

-لأنها فتاة وليست فتى .

- كما سمعنا أنها على وشك الزواج .

- ردالعم حسن:

لن تسلم ياصديقي من ألسنة القرية كيف تخالف العادات والتقاليد؟، كيف لفتاة ذات سيرة طيبة أن تترك عائلتها وتبيت وتصبح في بلاد غريبه ؟ فإن حسن الفتاة من سيرتها . .

وصمت أبي ثم قال:

-أراكم قد انتهيتم من الواجب دمتم أهلاً ودمتم سهلاً.

وغادروا البيت ساخرين يتنابزون ويتلامزون، فضحك إليّ أبي قائلا :

-لا تقلقي ستسافري وترسمي طريقًا جيدًا لمستقبلك وتعودي بالخير للقرية قبل المدينه وسيدركون أهل القرية ذلك.

وأتى اليوم المنتظر قبل بدء الدراسة في ألمانيا بأسبوع وأوصلتني أسرتي إلى مطار القاهرة ممسكة بيد أمي أطمئنها بألا تقلق وبعد القبلات الحاره والوداع بالدموع الشديد

قمـت بمعانقـة أبي قائـلا : -انتبهـي جيـدا ياعزيـزتي ولتعلمـي ياصغـيرتي أن الرجـال جميعهـم ذئـاب مفترسـة كونِ عـلى حذر، ولا يغُـركِ بربـكِ الكريـم وحافظـي عـلى صلواتـك .

نـادت موظفـة الاسـتقبال الالكـتروني على السـادة المسـافرين إلى نوتنـبرغ يُرجـى التوجـه إلى صالـة (٩) فالطائـرة على وشـك الإقـلاع وعمـل د. طـارق عـلى اسـتعجالنا مـن شـأن إقـلاع الطائـرة واسـتقر كل واحـد منـا في مقعده فقـد كنا ثـلاث فتيات وخمسـة فتيـة في المجـالات التعلميـة المختلفـة كالطـب والعلـوم والاقتصـاد وأخـيرًا أنـا ولارا في الأدب وأمـاني التـي تجردت من حجابهـا ونحـن في مطـار القاهـرة التـي أتـت لدراسـة السياسـة وعلومهـا الا قتصاديـة.

وضعـت سـماعات الأذن خاصتي أسـتمع لفيروز «يامرسـال المراسـيل» وانظـر في هاتفـي متمنيـة أن يفاجئني كعادته ويرسـل لي رسـالة نصيـة، وأخـيراً هبطـت بنـا الطائـرة في مطـار نورتنبرغ التـي هـي عاصمة المنطقـة الإدارية لولايـة بافاريا واتخذنـا القطار الداخـلي مـن نورتنـبرغ إلى ايرلنجن حيث السـكن والدراسـة.

وخطـت أقدامنـا في أرض ايرلنجـن ذات الجـو البـارد ذات السـماء الغائمـه، وفجـأءة شـعرت باضطـراب شـديد بداخـلي فوضعـت يـدي على صـدري هامسـة أنني أهمـس إليـك ياقلبي

همسًـا خفيفًـا بأن لا تقلق ولا تخشـى شـيئا فـإن الله معنا وسـيُرنا، نشـعر وكأن وجوهنـا غـير مألوفـة لـدى الألمـان .

ركبنـا حافلـة أوصلتنـا إلى جامعتنـا الجديـدة {**FAU**} والتـي اختصـار لجامعـة فريدريـش الإسـكندر ايرلنجـن نورتنـبرج، والتـي تُعـدُ أكـبر وأهـم الجامعـات في أوروبـا والتـي بهـا مائتـي خمسـة وسـتون قسـما، وإحدى عشر كليـة يقعوا ما بـين المدينتين، ولكـن ايرلنجـن تحظـى بالنصيـب الأكـبر مـن هـذة الكليـات حيـث اسـتقبلنا رجـل يعمـل في شـئون طـلاب الجامعـة وأخذنا إلى مكتـب العميـد البروفيسـور «إنتـي كلاي» حيـث أمـره باصطحابنـا إلى السـكن الجامعـي وإخبارنـا بـالأوراق المطلوبـه ومـاذا سـنفعل؟

واصطحبنـا ذاك السـيد إلى السـكن الجامعـي خاصتنـا أولاً وصعـد د.طـارف والسـيد إلى أعـلى الـدرج حيـث البـاب الثـاني للسـكن، ونحـن بالأسـفل، وفجأءة فتحت سـيدة البـاب ترتدي لبـاس راهبـات، وعندمـا رأت السـيد قامـت بتوبيخـه بصـوت مرتفـع بالألمانيـة، كيـف لـك أن تـأتي برجـل غريـب إلى هنـا، ألم تـدرك أن هـذا بيـت طالبـات ؟ رد د. طـارق مجيبـا نحـن جماعـة المنحـة الدراسـية، وهـذه هـي الأوراق التـي تـدل عـلى صحـة حديثـي فتناولـت الأوراق بعنـوة وقالـت :

لـكَ أن تذهـب الآن أمـا عـن تلـك الفتيـات فليدخلـن، ودخلتـا كلا مـن لارا وأمـاني فوقفـت أتحـدث مـع د.طـارق في منتصـف الـدرج أخـبره بـأن ثمـة أمـرًا مـا يقلقنـي مـن شـأن تلـك السـيدة التـي ترتـدي لبـاس الراهبـات، وهـل سـأمكث داخـل كنيسـة أم داخـل بيـت طالبـات مـن جميـع الأجنـاس ومـن جميـع الأديـان، لا أريـد أن أشـعر بأنني مغتربـة ايرلنجـن الوحيـدة داخـل هـذا المبنـي .

فأمـرني بـألّا أقلـق وأن أعتنـي بنفـسي جيـدًا، كـما قـال إنـه مـدرك تمامًـا بأننـي سـأتولى أمـوري وأمـور كلاً مـن لارا وأمـاني، ثـم ودعنـي وغـادر مـع الشـباب، ودخلـت حيـث تلـك السـيدة الحازمـه التـي لا تعـرف إلى الابتسـامة سـبيل كـي تسـتقر عـلى وجههـا .

أخـذت تنظـر إليَّ مـن أعـلى إلى أسـفل تنظـر عـن يمينـي وعـن يسـاري فابتسـمت لهـا فعبثـت، وقالـت :

اسـمعي أيتهـا الفتاة المحجبة سـأخبرك ما أخبرتـه لصديقاتك أريـد نظامًـا لا أريـد تأخـير عـن مواعيـد الطعـام والدخـول والخـروج ولا فـرق لـديَّ بـين أجناسـكم وأديانكـم فهـذه قواعد السـكن الجامعـي ولا أريـد مـن إحداكـن أن تخترقهـا، وهـذا الحديـث للجميـع وخاصـة المسـتجدات .

وبالبرغم من حزم وشـدة السـيده سـيلفيا إلّا إنهـا كانت مهيئة المـكان للتكيـف مـع المذاكـره مـن توافـر سُـبل النظـام والراحة، وصعـدت معنـا لكـي توصلنـا إلى غرفتنـا بعـد نقـاش شـديد منا عـلى إبقائنـا نحـن الثلاثـة في غرفة واحـدة ومعنـا فتـاة رابعة من الأردن تُدعـى سـارة لم نتعرف عليها سـوى في السـكن بشرط أن نـتراضى فيـما بيننا، فهـي لاتريد الإزعاج والشـكوى مـن إحدانا.

ودخلنـا حجرتناالكبـيرة والواسـعة بعض الشيء التـي يوجد بهـا نافذة واحـدة وخزانة ملابس ومكتب به ثلاثـة مقاعد وأرفف خشـبية تعتليـه وفراشـين، فوضعـت حقيبتـي واتجهـت مسرعـة ناحيـة النافـذة وقمت بعملية الشـهيق والزفيرعدة مـرات أنظر في هاتفـي أتمنى أن أنال منه رسـالة كي نتصالـح، وما عن لارا إلا أنها عندمـا لمحت تمثـال القديسـة أو العـذراء ركضت نحوهـا تناجية في جوفهـا، أما أمـاني فقد بدأت بترتيب أشـياءها ثـم قالت أماني:

مابـكِ يا إيـمان؟ سـتظلين واقفة هكذا أمـام النافـذة ! فقدمت نحوهـا ثم قمـت بترتيـب الثياب وترتيـب بعض روايـاتي العربية عـلى الأرفـف الخشـبية تلـك، وجلسـت بجوارهـن أسـتمع لحديثهـن وأنـا أنظر عـلى الحائـط وعينـي تـدور سـطحا وأرضًـا حتـى ضحكـت لارا قائلـة:

لا تقلقـي ياعزيزتي فلـن يوجد هنا أجهـزة مراقبة وان وجدت فلن تجـدي في المرحاض إذن وأخذت ثيـابي خاصة النوم ودخلت المرحـاض وسـمعت صوت شِـجار بـين أمـاني وسـارة، ولكنني لم أعـرف ماسـبب مشـاجرتهن، وعندمـا خرجـت وجـدت لارا تهمـس لي لا يجـب علينا الوثـوق بتلـك الفتاة فـلا نعرفها.

فهـي تريـد أن تأخـذ فـراش بمفردهـا ونحـن ثلاثـة أمـا هـي فواحـدة وقـد لايسـعنا فـراش واحـد لابـأس سـوف نقـوم بحلهـا، وبأسـلوب رقيـق بابتسـامتي الطفوليـه تمكنـت مـن إقنـاع سـاره بـان تختـار مـن منـا يشـاركها الفـراش، وبالـتراضي أخـذت ترتـب أشـياءها ووافقـت بـأي منـا ترافقهـا، وارتديـتُ لباسًـا فضفاضًـا، ووضعـت سـجادة الصـلاة ووقفـت حائـرة أيـن اتجـاه القِبلـة ؟!

وكيـف لي أن أسـأل وكل مـافي السـكن يعتنقـون المسـيحية؟ فسـألت أمـاني وسـاره يمكـن أن تجيبـاني، ولكنهـما لم تـدركا، قالتـا حينهـا إذا علمـت فأخبرينـا فوجهـت وجهـي لله وناجوتـه بـأن يتقبـل منـي وجعلـت ظهـري أمـام تمثـال قديسـة لارا وصليـت، فـأردن البنـات بـأن نجلـس ونتسـامر وخاصـة سـارة؛ لأنهـا لم تتعـرف علينـا إلّا في السـكن الجامعـي فكانـت تـدرس الاقتصـاد مثـل أمـاني.

فتثاوبت قائلة لهن : لقد لقيت من سفري هذا نصبا فلتدعاني أخلد إلى النوم رجاءً، ولنتحدث في الصباح إن شاء الله وغفت كلا منهن على فراش، فتشاركت أماني لارا الفراش وأنا على فراش وشريكتي سارة، وعندما استويت على الفراش كي أخلد إلى النوم لم أشعر بالراحة قط، أخذت أتقلب يمينًا ويسارًا وكلا من لارا وأماني نائمتين فألقيت الغطاء عني وقمت بوضع مقعد خشبي أمام النافذة أنظر في الشارع المسفلت بالأحجار القديمة والبيوت والمحاريب التي كانت على الطراز الغوتي، حتى السكن الجامعي على نفس طراز الشارع .

وكلمة غوتي تطلق على جميع الفنون في القرن الثاني العشر ميلادي حتى كنت في عجب من أمر هؤلاء قوم الغوت اوالمطلق عليهم مثقفي النهضة الإيطالية الذين كانوا كثيرين الترحال.

وكان هذا الطراز يزيد المدينة رونقا خاص لدى الزائرين وشيء من ظلال الماضي المكون من الزجاج المعشوق والرسم والنحت وقطع المحراب ورسم البانو وخاصة خارج الكنائس والنحت والفسيفساء في البيوت وأرصفة الطرقات هكذا كان النظام الباروكي.

وظللــت طــوال الليــل أناجــي ربي بــأن يمنحنــي الصــبر والقــوة إلى أن أتــت الســاعة الثانيــة صباحًــا فهمســت بــأذني موســيقي هادئــه وترانيــم أطفــال تنشــد وأضــواء في الكنيســة المقابلــه للســكن الجامعــي فقمــت بغلــق النافــذة والســتائر، ثــم قمــت بتحميــل برامــج الأذان والقِبلــه عــن طريــق الانترنــت بواســطه هاتفــي وخلــدت إلى النــوم حتــى الصبــاح.

أفقــت عــلى صــوت ســاره وأمــاني تتشــاجرا فعملــت عــلى تهدئتهــما، ونزلنــا نحــن الثلاثــة إلى حجــرة الطعــام بعدمــا دق جــرس طعــام الســيدة ســيلفيا ودخلنــا وجلســنا بجــوار بعضنــا، ووضــع الطعــام ونظــرت إلى جميــع الفتيــات وهــن يتناولــن فطورهــن أمــا أنــا فكنــت لم أرغــب خشــية هــذا الطعــام أخشــى أن أتنــاول شــيئًا محرّمًــا فاحتســيت القهــوة ولم أكــن راغبــة.

وانتظرنــا د. طــارق خــارج بوابــة الســكن مــع الفتيــة كــي نذهــب إلى البلديــة لنســجل وجودنــا في الدولــة والإجــراءات اللازمــة لوجهــة أي مغــترب بمكتــب الاســتعلامات والإجــراءات الشــكلية والقانونيــة التــي تســاعدنا في تســجيلنا في الجامعــة مما ستســهل علينــا أشــياء كثــيرة مــن الأمــور كبطاقــة صراف وكتأمــين صحــي لجميــع الأمــراض وتســهيل وســائل المواصــلات العامــة بالمجــان بالنســبة لنــا كطــلاب خــلال

الفصـل الـدراسي الـذي ينعقـد في سـتة أشـهر وممارسـة الرياضة في بعـض النـوادي بأقـل تكلفـة وقـد تكـون أحيانـا بالمجـان هـي الأخـرى .

وبعـد انتهائنـا مـن العمـل اقـترح علينـا د. طـارق بـأن نتنـزه في المدينـة ونشـاهد معالمهـا، وسـيرنا نحـن الثـلاث فتيـات وخمسـة فتيـان وتاسـعنا د. طـارق وتجولنـا في مدينـة أيرلنغـن وتمشـينا والتقطتنـا الصـور التذكاريـة في الأزقـة الصغـيرة والمدينـة القديمـة ذات القـلاع والشـوارع الجانبيـة الصغـيرة تتميـز بالحقـول الخـضراء ونهـر غينتـز الـذي يخـترق المدينـة، ويعـبر مـن منتصفهـا الـذي لايشـبه نهـر النيـل سمائها الغائمـة فجوهـا وعبقهـا المسـيحي يذكـرني بوصـف مـصر قبـل مجـئ عمـرو بـن العـاص إليهـا .

موسـيقي الأوبـرا الشـهيرة مقطوعـة [كارمينـا بورانـا]، التـي هـي أشـهر موسـيقي ألمانيـة للملحـن الكبـير كارل أورف.

أيهـا القـدر المتغـير كالقمـر التـي تهجـو القـدر في عهـد الاحتـلال تسـمعها في كل مـكان حتـى أخذنـا ندنـدن معاهـا التـي تترجـم بالعربيـة إلى :

أيها القدر مثل القمر

أنت متقلبٌ، أحيانًا تمنح وتزيد، دومًا تمنع وتنقص

الحيـاة بشـعة، أولا تقهـر، ثـم تغـدق كـما يـروق لـك، فالفقـر والجـبروت تذيبـه كالجليـد، المصـير موحـش وفـارغ

ياعجلة القدر الدائرة، كم أنتِ حاسدة وحاقدة

الهناء إلى الزوال، ويتلاشى إلى العدم،

أصبحـت باهتـا، ومتسـللا، حتـى أن بـلاؤك يصيبنـي والآن أنـا خـارج اللعبـة أديـر ظهـري لـشرك مسـتطير، أنـت ضدي في الصحـة والخـير، كلـما سرت قدمـا أسـير مُثقـلا، دائـمًا مسـتعبد، حانـت السـاعة بـدون تأخـير لعـزف الأوتـار، حيـث إنـك يـا قـدر تـضرب عـازف الأوتـار ابكـوا معـي جميعًـا........

كـما وجدنـا تماثيـل للعديد مـن السـيدات المنتحـرات فوقفت أمـاني ولارا حائرتـان لمـا كانـت النسـاء تنتحـرن ؟ لماذا يـا إيمان ؟

لقد قرأت فى إحدى الكتب التاريخية :

عندمـا دخـل السـوفيت ألمانيـا واحتـلال قـوات الحلفـاء «أمريـكا، بريطانيـا، فرنسـا» تـم اغتصـاب أكثـر مـن ثـلاث مليـون امـرأة ألمانيـة...

كثير من النساء انتحرن بالسم لتجنب وحشية الجنود السوفيت والأمريكان حتى إنه نفذ السم في ألمانيا وأصبح سلعةً نادرةً فكانوا ينتحرن بهذا الشكل.

أجناسها المختلفة احترام الجنسين لبعضهما دون مضايقة بعضهم البعض، قليل إذا ابتسم شعب الألمان، حدائق الملاهي السنابل الخضراء كثرة المحاريب والتماثيل.

فعندما تعيش في مجتمعين مختلفين وتتعايش فيهما وبهما فإنك حتما ستقود عالمك الخاص بنفسك دون قبطان دون شراع.

وأتى أول يوم لنا في جامعة ايرلنغن نورتنبرغ وذهب كل منا إلى قسمه، حيث أنا ولارا إلى قاعة قسم الأدب ثم اتجهنا نحو حجرة الأساتذة، أساتذة قسم الأدب لكي نتعرف عليهم، ولكي نخبرهم بأننا نحن أصحاب المنحة الدراسية خاصة الماجستير والدكتوراه، ونقوم باختيار الأساتذة الذين سيدَرسون لنا، وبعد جلوسنا معهم للمناقشة في بعض المواد اتفقت مع لارا أن يكون أستاذين مشتركين بيننا، أما الثالث فلا بعد ما اخترت مادة الأدب المقارن والمقارنة بين الأدب العربي والغربي نصحني أحد الأساتذة بأنه كان يوجد بروفيسور كان مولعا بالأدب العربي خاصة بالرغم من أنه

قد اعتزل التدريس، ولكنه موجود بالجامعة فابحثي عنه فإنه سيفيدكِ جدًا، ولكن لابد من إقناعه بالتدريس أولا، ويُدعى بروفيسور فريدريش غراس فأرشدوني إلى غرفته وجئته على استحياء فوجده جالسًا بمفرده في حجرته ينظر في مجلد كبير، هكذا لمحته من النافذة فطرقت الباب لكي يسمح لي بالدخول فأشار إليَّ بيده كي أدخل، كان جالسًا في غرفة منظمة مليئة بالكتب يرتدي معطفا قديما أصلع الشعر قد يطرأ على وجهه ملامح الكِبر، قد يكبر أبي بمراحل، شبيه الملامح بعالِم الفيزياء اينشتاين.

فنظرت إليه باندهاش عندما تلفظ لفظ حواء، ثم قال مرة أخرى أأتيتي لتصمتي ؟! فأجبته في خيفة أنا هنا لإكمال دراسة الماجستير والدكتوراه بمساعدة حضرتكم.

وفجأءة أغلق الكتاب بشدة وقال أنا لا أساعد أحدا أفهمتي، وقام بدفع الكتاب على المنضدة، ولما وقع عيني على هذا الكتاب الذي كان بعنوان «أرون اربر» الذي يعني هارون العرب هارون الرشيد، وهذا مما جعلني أركض وراءه وأصر على تدريسه لي وركضت بشده كي ألحق به، وقلت له أنا أصر على تدريسكم لي وأنا سوف أكون طالبة نجيبة، لقد تركت بلادي وعائلتي وأحبتي كي أتمم دراستي، فقاطعني الحديث وقال :

-لا أستطيع التدريس لكِ وخاصة لامرأة عربية وهيا اذهبي وابحثي عن بروفيسور آخر غيري فتعنت قائلة:

-لن اذهب إلى مكان ولن أبحث عن آخر، إذن وليكن ماقالوه عنك الجميع صحيح فوجه وجهه نحوي وحد نظره إليَّ متسائلا وما يقول عني الآخرون ؟

-فخفضت بصري إلى أسفل في الحال ولم أجب فقال هيا اذهبي حالا ولا أريد أن أراكِ يا فتاة الحجاب، فلم أسأم وظللت واقفة أمام باب حجرته حتى هطل المطر، ولا زالت واقفة أمام باب حجرته المغلق أتمتم في نفسي، لماذا تواقحت في حديثي معه ولكن عندما يحين وقت خروجه سأعتذر منه وعندما نظر من النافذة وجدها تمطر، فقام بأخذ مظلته متجهًا ناحية الباب قاصدا الخروج، فركضت نحوه مرتجفة كي أعتذر منه، لكنه لم يتفوه بكلمه وركب سيارته وأغلق نافذة السيارة وذهب، ولكني لم أسأم من ذلك.

وعدت إلى السكن الجامعي مبتلة مرتعشة لم تتحمل ساقي على حملي وعندما أوقفتني السيدة سيلفيا تسألني مابي شعرت بدوار وانطرحت أرضا ولم أدري ماذا جرى بعدها إلّا في صباح يوم الغد وجدت نفسي مستلقية الفراش تجلس بجانبي لارا وتضع الماء البارد على جبيني بعدما ابدلت لي ثيابي المبتلة.

وظلـت بجانبـي لكـي تعطينـي الـدواء المتأخـر مـن الليـل هـي وأمـاني فبرغـم اختـلاف الأديـان ظلـت باقيـة معـي قلقـة عـلى مـرضي، وفجـأة أتـى اتصـال مـن إليـاس إلى لارا حيـث الحـب المتبـادل بينهـما والقرابة القويـه أيضا فإنه طبيـب يمكث في برلـين في بيت أحـد أصدقائه مـن الأطباء المشـهورين فقد كان قد وعدهـا بزيارتهـا في ايرلنغـن يـوم عيـد الفصح الذي سـوف يقيم في الغـد وأنـه عطلـة رسـميه لجميع مـدن ألمانيـا الموافق السـادس مـن أبريـل فأجابتـه تعتـذر عـن الموعـد بسـبب أنهـا لم تتمكن من تركـي مريضـة وتذهب وخاصـة بعدما سـمعت أمـاني أن إلياس سـيأخذها في نزهـة إلى نورتنـبرغ وأحبـت الفكـرة.

وخرجـت كـي تحدثـه عـلى انفـراد فأتتنـي أمـاني ثم جلسـت بجـواري تسـألني مـن هـو أليـاس يا إيـمان؟ :

- إنــه حبيــب لارا طبيــب يمكــث في برلــين مــع أحــد أصدقائــه يكبرهــا بحــوالي تســع ســنين ويعمــل في مستشــفي هنـاك، فابتسـمت أمـاني ابتسـامة تـدل عـلى أنهـا سـعيده مـن أجـل الذهـاب في نُزهـة وأنهـت لارا محادثتهـا مـع إليـاس فرحـة مـسرورة وجلسـت بجانبـي تقـول:

-هيـا يـا إيـمان أراك أصبحـتِ بصحـة جيـدة أريـد أن تـأتي معنـا غـدا فإليـاس يطـوق لرؤيتـك كـما سـيأتي أيضـا معـه د.

مراد صديقه الذي يجلس معه في بيته، وهيا قمن لتجهيز ملابسنا للغد، ثم قالت سارة أتعتقدين أن ذات الساق السمينة ستوافق على خروجنا ؟

- قالت أماني : أتقصدين السيدة سيلفيا ؟ أجل.

- قالت لارا: إنه عيد الفصح وإنه إجازة رسميه، ولابد لنا أن نخرج لكي نصلي ونهنئ بعضنا في الكنائس، فهمست لي أماني متسائلةً وماهو عيد الفصح يا إيمان ؟ هو يسمي في المعتقد المسيحي عيد القيامة أهم أعيادهم يحتفل به المسيحيون بذكرى صلب المسيح ومن ثم قيامته بين الأموات.

- ما بك ياسارة أراكِ مندهشة من حديثي ؟

- أوه عذرًا يا إيمان فأنا حقًا لم أفهم شيئا.

وقامتا بتجهيز اغراضهن وعندما حل الصباح واستعدو للخروج وبإندهاش شديد من لارا لإيمان، أراك ملازمة للفراش ألم تأتي معنا!؟

-لا أريد أن أذهب سأبقى هنا طوال اليوم، إنني أشعر ببعض التعب في أنحاء جسدي فاعذريني واعتذري من إلياس نيابة عني وأبلغية تحياتي، فأرسل إليها إلياس رسالة نصية تنص على أنه ينتظرها مع صديقة أمام بوابة السكن

الجامعي فأسرعتا نحو الباب وبعدما نزلت لارا صعدت إليَّ راكضة مرة أخرى تعانقني وتقول: - سأفتقدك طوال اليوم كما أنني سأقابل إلياس اليوم وكاد قلبي أن يتوقف عن النبض.

اهمسي إلى قلبك بألا يقلق ولمَ تقلقين فإنكما تتحدثان بالساعات في الهاتف وهيا اذهبي الآن لا يجب عليك التأخير فإنه ينتظرك أسفل وأنا سألوح لكم بيدي من النافذة هيا وعند نزولهم عند الباب نادت عليهن السيدة سيلفيا قائلة :

-أراكم ثلاثة أين الرابعة ذات الحجاب ؟ أجابتها لارا :

-إنها ليست بصحة جيدة ولا تستطيع الخروج، كما إنها لاتعتنق المسيحية واعلم لا يتوجب علينا التأخير لتذكرنا القوانين.

وخرجن، ووجدت لارا إلياس فركضت نحوه وقامت باحتضانه فسعل صديقه، وتفوه بكلمات لم تكن واضحة حيث انتبها على ماحولهما، فتقدم إلياس خطوة اتجاه أماني ووقفا تحدثا قليلا ثم أشارت سارة إلى النافذة، فلوحت لهم بيدي من وراء النافذة، وركبوا سيارة ورحلو.

وفي آخـر النهـار وقـد كاد أن ينبطـح الليـل اتصلـت لارا للاطمئنـان عـلى صحتـي تحـذرني من فتـح متصفح عمـر تحذرني مـن النـزول في حديقـة السـكن .

ثم قالت:

-إننـا في القطـار عائديـن من نورتنـبرغ في طريقنـا إلى ايرلنغن وبعـد مـرور ساعة ونصـف مـن الوقـت وجـدت بـاب الغرفـة ينفتـح إذ لارا تـصرخ وتنـادي إيـمان فكنـت جالسـة عـلى المقعـد أمـام النافـذة أضـع سـماعات الأذن أدنـدن أنـا والعـذاب وهـواك للموسـيقار محمـد عبـد الوهـاب وركضـت نحـوي عزيـزتي لقـد افتقـدكِ كثـيرا، وأتـت سـاره وأمـاني وجلسـنا عـلى الفـراش سـويًا تسـألني لارا مـاذا فعلـت طيلـة النهـار؟ فأجبتهـا لاشيء كان اليـوم ممـلاً حقًـا .

– ردت أمـاني : ليتـك أتيـتِ معنـا يـا إيـمان فقـد كان يومًـا ممتعًـا جـدا فخطفـت سـاره الحديـث وخاصـة د.مـراد فإنـه يشـبهك في الشـخصية كثـيرا .

– حقا؟

– هيا اقصصن لي ماذا فعلتن؟ بدأت لارا الحديث :

- عندما خرجنا من باب الحديقة وجدت إلياس ومراد ينتظروننا وقد اعتقد إلياس أن أماني أنتِ، وذهب ليسلم عليها قائلاً مرحبا يا إيمان سررت بلقائك فضحكت، ثم أخبرته بأن هذه أماني، وسارة تسكن معنا في نفس الحجرة وليست إيمان، وقد قلت له أتعتقد لو أنها إيمان كنت أجرؤ على معانقتك لقد كانت حرقتنا مثلما فعل هتلر مع اليهود وضحكنا .

ثم ركبنا السيارة وأخذنا نتسامر ونتحدث في الكلام المعسول وأخذنا نصفق ونغني طوال الطريق ماعدا مراد؛ لأنه كان السائق لسيارته كما أنه أيضًا هادىء الطباع لا يكترث بمن حوله، قليل الحديث.

وعندما شعرنا بالجوع قال إلياس :

-حسنا يا شريك فلنصف السيارة هنا ونذهب لنتناول الطعام، ودخلنا مطعما وطلبت أنا وإلياس نفس الطبق المكون من الكفيار بالخردل، وطلبتا سارة وأماني البيتزا أما مراد ففضل الاسبكتي والقهوة، ومن هناعلمت أنه ليس مسيحيًا عندما سألته ألست كريستين، وأخبرته أنه يشبهك في بعض التصرفات ولم ينتهي الحديث عنك طوال النزهة.

- وبما كانت غيبتي ؟

- لا تقلقـي يـا إيـمان فقـد راهانـت لارا عـلى مـا تفعلينـه طيلـة النهـار فأخبرتنـا بأنـك تحدثتـي مـع أسرتـك، ثـم قـرأتي روايـة الحـب تحـت المطـر مـع موسـيقي أنـين النـاي، وعـن عنـادك ومـا حـدث معـك مـن قِبـل أسـتاذك في الجامعـة .

وكنـت أول مـرة أعـرف فيهـا أن د. مـراد ليـس جراحًـا فحسـب، بـل يـدرس الموسـيقي فإنـه حقًـا وقـورًا وذا ذوق رفيـع يعـرف كيفيـة التعامـل مـع الفتيـات .

-هل د.مراد مرتبط يالارا ؟ لا لا أعلم يا أماني

- ولكـن كل مـا أخـبرني بـه إليـاس أنـه جـراح قلـب مشـهور ويعمـل بروفيسـور في جامعـة برلـين، كـما أنـه يـدرس الموسـيقى وأن البيـت الـذي يسـكنان فيـه خاصـة مـراد ؛ لأنـه يمتلـك الجنسـية الألمانيـه، وأنـه مـن عائلـة مصريـة ثريـة، عـلى مـا أتذكـر أن والـده كان يعمـل بالسـفارة المصريـة .

-أجابـت أمـاني بتمعـن : إنـه شـاب وسـيم وغنـي وجسـمه ريـاضي ولا تـدل هيئتـه عـلى سـنه فإنـه أصغـر مـن سـنه المطـروح، كـم أتمنـى أن يصبـح زوجـي المسـتقبلي، فنظـرت إليهـما ثـم رميتهـن بالوسـادات ونزلـت أتمشـى في حديقـة السـكن الجامعـي ومعـي دفـتر أُمسـياتي لكـي أتمشـى تحـت السـماء ونجومهـا السـاطعة .

أتذكر عائلتي وأصبر نفسي بأنهم بمكان وأنا بمكان آخر، ولكننا تحت أرض وسماء واحدة، إذن لن تفرقنا الأماكن فجميها تحت مسمى تسميات جغرافيَه، وما بالك ياعمر أراك لا تريد أن تذهب من مخيلتي، أتذكر حركاتك الجنونيه ففي نصف طريق النسيان أشعر أن ما حدث لم ينته يومًا، ولازلت أتعايش آلامه وكأنه لم يبارحني أبدًا.

-آه ماذا تفعل الآن ياعمر؟ أتفكر بي مثلما أفكر بك؟ أم حقًا لم تتذكرني فالحقيقة أنا لم أرد أن أفكر بك، ما مأساة ذلك القلب المفطور بدموع الداخل المذبوح، هل التضحيه في سبيل الحب واجبه أم فرض ؟!

فكفاك ياقلبي تحملا كفاك صدى صوت مجروح يلتهمك لم يا قلب لم تكن كموج البحر عندما يكتب على حافتك لغة العشق تأتي موجة هوجاء تمحي ماكتب وما آثاروه من نقش لم أمواجك لا ترتطم في العشق المنحوت بداخلك فتتفتت تلك النقوش مع عوامل الارتطام وتمحي آثاره .

لم لا تبني أسوارًا وقلاعًا تحميك من دخول هذه اللعنه، لم لا تجعل جنودك يستيقظون وقت دخوله فيحاربونه من أجل آثار الجروح والموتي في خلاياك، لم لا يمكنني أن أصفع هذا الحب كي لا يتعدى عليَّ، أخشى من سوء حظي

السيء ألا أحظى بأحد من الحور العين الذين أصبر نفسي بلقاء أحدهم فهم أصدق من لعنة تلك البشر، عندما يأتيك الحب لا تتقبله كي لا يلقي عليك لعنته الكبرى من سوء ظن وشكوى ونحيح وظلم .

فلم يوجد ذَكر أدمع على أنثاه أو من أجلها، هل من معماريا يستطيع بناء حاجزًا أو ميناءً كبيرة حتى يضع عضو القلب هذا بداخلة ؟هل من جراح قلب حتي يعطيه أبرة تجعله نائمًا لمدى الحياة أو إجراء عمليه له ببتر تلك الأوردة الدقيقة المستخدمة في شعور الإحساس فقط ؟ .

أرى أن الجو باردًا هذه الليلة .

-إيمان ماذا تفعلي اتكتبين في أُمسياتك ؟ أجل يا لارا لقد انتهيت ما الذي جعلك تأتين إلى أسفل فالطقس بارد، هيا بنا نصعد إلى أعلى كي نخلد إلى النوم فلابد من ذهابي إلى الجامعه في الصباح الباكر ولماذا ؟ كي أنتظر بروفسيور غراس .

أجل هيا وفي الصباح ارتديت لباس الخروج كي أذهب إلى الجامعة فنادتني السيدة سيلفيا : إلى أين ياعزيزتي في الصباح الباكر أراكي ترتدين ثياب الخروج ولا ترتدين ملابس الرياضة ألم تتناولي فطورك ؟ شكرا لكِ سيدتي،

ولكــن عــليَّ الذهــاب الآن كــي أرى البروفســيور فريدريــش غــراس لكــي أجــد حــلاً معــه .

-ذاك السيد الذي جعلكِ تقفين تحت المطر ؟

- لا أنــا وقفــت تحــت المطــر بمحــض إرادتي ولم يطلــب منــي ذلــك .

-أجل في رعاية الرب ياعزيزتي.

وذهبــت متوجهــة نحــو الجامعــة أنتظــره أمــام غرفتــة أتذكــر ماحــدث أول أمــس أتذكــر المطــر الهاطــل ونظرتــه التــي تشــبه اينشــتاين، وفجــأءة رأيــت ســيارتة تصطــف وإذا هــو خارجًــا منهــا فذهبــت إليــه راكضــة أعتــذر منــه عــلى أســلوبي الســيئ وأنــه لم يجــدر لي أن أحدثــه بهــذه الطريقــة فدخــل حجرتــه وأغلقهــا .

وظللــت أطــرق بــاب الحجــرة حتــى يــأذن لي بالدخــول فكنــت أزداد في طرقــي للبــاب حيــث قــام وفتــح لي وعندمــا دخلــت قــال:

-مــاذا تريديــن أيتهــا المــرأة العربيــة ألم أخــبرك بأننــي لا أســتطيع أن أدرس لــكِ، هيــا اذهبــي وابحثــي عــن معلــم آخــر فأنــا لم أعمــل في مهنــة التدريــس منــذ عامــين، فأجبتــه :

لقـد أخـبرت حضرتكـم أننـي لا أريـد البحـث عـن معلـم آخـر ولـن أسـأم حتـى ترضـخ بتعليمـي، فلـما رأى عنـادي وكبريائـي قـال :

-حسـنا ولتعلمـي أنهـا فرصتـك الوحيـدة ولـن أعطيـكِ فرصـة أخـرى إذا لم تتجاوبـين فقلـت:

بـكل سرور وظللـت تلميذتـه الوحيـدة وكان أغلـب اليـوم أقضيـه بـين المكتبـات مـع جـدو اينشـتاين، أمـا باقـي المحـاضرات كنـت آخذهـا في قاعـة المحـاضرات مـع لارا، وظللـت هكـذا لمـدة أربعـة أشـهر إلى أن أتي اليـوم وأخبرتنـي لارا عـن موعـد خطبتهـا عـلى إليـاس وأنهـا سـتقيم مراسـم الخطبـه أوالنصـف إكليـل في كنيسـة ويلهلـم التذكاريـة ببرلـين ثـم في قاعـة مناسـبات ليـلا.

وقـد اتصلـت بهـا أسرتهـا يخبروهـا بأنهـم سـيتواجدون قريبـا في برلـين مـن أجـل الخطبـة وبعـد عنـاء شـديد حصلنـا مـن الجامعـة بإجـازة إلى برلـين لمـدة أربعـة أيـام والفضـل كل الفضـل لد.طـارق الـذي عمـل جاهـدا للحصـول عـلى تلـك الأجـازة فلملمنـا ثيابنـا التـي سـنحتاجها في برلـين.

كـما أرسـلت لارا بطاقـات دعـوة لإصدقائنـا الشـباب المسـافرون معنـا في نفـس المنحـة لحضـور حفـل خطبتهـا،

وذهبنـا بالحافلــة مــن ايرلنغــن إلى برلــين التــي اســتغرقت مــن الزمــن خمـس سـاعات، حيـث اسـتقبلنا إليـاس وأخيهـا الأوســط الــذي ركضــت نحــوه وأخذتــه بالأحضــان.

ثــم ركبنـا سـيارة صديقـة فسـألت لارا إليـاس أيـن مالـك هـذه السـيارة ألم يـأتي معـك؟ فأجابهـا :

-بأنــه في عمليــة جراحيــة ولم يتمكــن مــن المجــيء فقــد اســتقبل أسرتــك قبــل ان يذهــب، ولكــن لا تقلقــي فإنــه سـيكون في البيــت مسـاءً، ووصلنـا إلى بيـت صديـق إليـاس ذات الحديقـة الواسـعة والعـم يـس الـذي شـعرت مـن رؤيتـه وكأننــي في مــصر، بشرتــه الســمراء وكلامــه العــربي حيــث فرحــت كثــيرا بــه وبإعتنائــه لزهــور مالــك البيــت .

وجـدت لارا أسرتهـا وبعـد التسـليم أخـذت تعرفهـم علينـا وخاصــة بي وأمرتنـا والـدة لارا بتبديـل ثيابنـا ؛ لكـي نتنـاول غدائنـا فأخذنـا إليـاس إلى الطابـق الثـاني مـن البيـت ليعرفنـا حجرتنـا التـي سـنقيم فيهـا في بيـت السـيد مـراد ورأيتـه عندمـا أصرت لارا عــلى نــزولي إلى أســفل ؛ كــي أجلــس معهــم في حجــرة الجلــوس فــأرادت لارا أن تعرفنــي بــه فقالــت : - لم يسـبق لكـما أن تعارفتـما عـلى بعضكـما ،هـذه إ...فقاطعتهـا قائلـة: -حـواء فتبسـم دون أن يشـعر باندهـاش مـراد تشرفنـا،

وكان عليه نفس رد التحية مني، ولم أدري لم شعرت بالخجل فجأءة عندما وقعت عيني في عينه أوعندما قالت لي لارا:

- إيمان إنكِ لم تأكلي شيئًا منذ أن أتينا .

- فأجبتها بعدم الرغبة والحاجة لي في الطعام، واستأذنت منهم بإسلوب لبق بحجة أنني أريد أن أنهي كتابي، وعندما قمت وسرت نحو الباب تفوه د. مراد :

لايجب على ضيوفنا الصعود إلى حجرتهم وهم جياع والآن على ضيفتي العزيزة مساعدتي في تجهيز وجبة العشاء فأجابو الجميع نحن لانريد، ولكن نريد بعض القهوة، وبالضغط منهم ذهبت معه حيث المطبخ، وقال :

-لك ماشئت ولكن لايتوجب عليك الصعود دون طعام وفجأءة أطفئت الأنوار فتلعثمت، ثم قلت بعنفوان :

-أنا لا أحب هذا المزاح وإذا هو إلياس يحضر الحلوى ويهنئ د. مراد بعيد ميلاد فعايدته، ثم أخذت تفاحة وشكرته وصعدتُ إلى أعلى، وأتى اليوم الثاني يوم الخطبة وذهبنا جميعا، فأوجست خيفة من دخولي الكنيسة فأتى إليَّ د.مراد وأعطاني سلسال به أول خمس آيات من سورة يس .

وفي المساء ذهبنا من البيت إلى قاعة الحفل، وعندما سئمت من الجلوس والضوضاء ذهبت وجلست في الحديقة فلمحت السيد مراد قادمًا، ولم أدرك إن كان قد أتى بمحض الصدفة وأنه لا يحب الضوضاء أم أتى متعمدًا فاستأذن بالجلوس فخجلت أن أرفض وفجأة خلع معطفه وأعطاني إياه فكان الجو قارصا ودخلنا إلى القاعة مرة أخرى وأعطيته معطفه وسلساله خجلة من كلمة الشكر فقط .

ولما انتهي الحفل وذهبنا إلى البيت صعدت إلى غرفتي وخلدت إلى النوم لممارسة الرياضة في الصباح الباكر، ثم التجول في برلين على حسب خُطتتنا وأتى الصباح واستعد إلياس وصديقة لأخذنا للتنزه في برلين وزرنا مبنى البرلمان، جدار برلين، وجزيرة المتاحف، وأخذنا بعض الصور الفوتغرافية أمام برج الكتب المدون تحت كل كتاب منحوت اسم صاحبه حيث أردت ان أبتاع بعض الهدايا التذكارية لأسرتي ولبروفيسور غراس فأخذنا د. مراد إلى شارع العرب .

وها قد حان وقت رحيلنا من برلين إلى ايرلنغن وعدنا إلى السكن الجامعي وصعدنا إلى غرفتنا حيث الإرهاق الشديد من التنقل وأمور تحضيرات الخطبه إلا أنها كانت أيامًا ممتعة، وكم أتمنى أن يرى د. مراد تلك الورقة التي

أخطتها من أجله فلقد ألصقتها على ثلاجة المطبخ، هل لي أن أطلب من لارا أن تسأل إلياس عن تلك الورقة ؟

ولكن لا ماهذا الهراء.

كيف لي أن أسال عن تلك الورقة أتمنى ألا يراها قد لا يجول في خاطره شيء ما.

وفي الصباح الباكر ارتديت ملابسي قاصدة الجامعة ومعي هدية لبروفسور غراس واتجهت نحو المكتبة لكي أنتظره لنأخذ المحاضرة فوجدتة مبكرا عني يأنبني هل على الشباب الملئ بالحيوية يتآكله الكسل فابتسمت إليه، ثم أعطيته هديتة التي هي صندوق خشبي مرسوم موجود عليه صورة لامرأة صحراوية بوشاحها بوشمها الموجود أسفل فمها الممتد إلى أسفل ذقنها فأحبه كثيرا، وعندما وقعت عينيه صن قليلا على تلك المرأة المرسومة على الصندوق فاندهشت من نظراته لتلك المرأة قائلة :

-أتمني أن ينال على إعجابكم، فرد قائلاً :

- تلك المرأة المرسومه تذكرني بالمرأة تلك فتناوبني الفضول فسألته عن أي امرأة حضرتكم يقصدها ؟ فنظر إليَّ، وقال:

-لا شيء، هيا اجلسي لنأخذ المحاضرة وبعد الانتهاء من المحاضرة وضع يده يلامس بيديه امرأة الصندوق، وقال:

تلك السيدة سيدة الصحراء قابلتها لأول مرة في صحراء في الوطن العربي من أجل دراسات وأبحاث في اللغات ومتى أنشئت، ودراسة الأدب الشعري القديم فكنت كثير الترحال.

كنت تائها فاقد الطريق فوجدتها ذات الوشاح الأسود راعية الأغنام، فذهبت إليها كي تدلني على الطريق وتقدمت نحوها كي أسألها فرفعت في وجهي العصى التي تهش بها على الغنم، لقد ذهبت من أجل البحث العلمي خاصتي فكنت حاملا في جيبي تسجيلا صغيرًا به أشرطة كاسيت ؛ كي أسجل مايقولوه العرب فيما يخص بحثي .

فأخرجت جهاز التسجيل لأسجل صوت الحفيف على الفحيح على النقيق على الصهيل على صوت الأغنام فضغطت على الزر الخطأ فأحدث التسجيل رنة موسيقية، فتناولت يديها وراقصتها حتى هطل المطر، وعندما كنت أراقصها نزل الوشاح فأفضح وجهها ذات الوشم الأخضر أسفل ذقنها، فكانت قريبة الشبة من تلك المرأة الموجودة على الصندوق.

ولما لمحنا أحد البدو صرخ علينا وفي لمح البصر وجدت بندقيته موجهة نحو جبيني وضربها على وجهها حتى انطرحت أرضا، ولما حاولت أن أتحدث مع ذاك الرجل لم فعل بها كل هذا ؟!

ولكي أدافع عن تلك الغجرية ذات الخلخال كانت القبيلة قد اجتمعت وخيروني بدو الصحراء بين الذهاب في الحال، أو القتل، أو أن يتركونني عاريا مصلوبا فأكون طعامًا للطيور وحيوانات الصحراء.

فصرخت بوجههم بعدما رأت الدم سائلا من فمي، صرخت بصوتها الصحراوي تتكلم لم أفهم شيئًا فأشارت إليّ بيديها إشارة بمعنى ارحل، وذهبتُ كنعاجها هربت خوفا لم أستطع حمايتها لم أعلم ماذا حل بها بعد .

حاولت أن أطمئنه بعدما أحضرت له كوب ماء دافيء، وقلت له :

لو لم يكن وضع بيئتها صعب لم تتركها فهؤلاء الصحراويين يسلكون سُبل العادات والتقاليد القديمة التي يضعونها هم، لا يخضعون لقوانين سوى قوانينهم، وبعض القوانين لديهم تنص على أن البنت لا يمكن أن تتزوج من خارج قبيلتها، وهذا ماحدث وما كان سيحدث ورأيي أنك

لم تصنع ذنبا وأنك لم تتركها وتهرب بل عاداتها غلبت عليكم الذُل‍ه ولكنها دائما العادات والتقاليد تنتصر إلا من رحم ربي وأن بقائها مع قبيلتها أجدر لها من الذهاب معك...

ولو أنها أتت معك تكون في عاداتهم هاربة من القبيلة فيبحثون عنها ويقتلونها حتى ولو آخر العمر؛ لأن هذا ما يطلقون عليه بالعار ولا يمكن إزالة العار إلا بقتل الأنثى أو يقومون بقتلكما سويًا وإنك إذا لم تتركها لم يكن لديك الآن أحفاد من عمري .

وجعلته يبتسم ثم اقترحت عليه أن نتمشى سويًا في حديقة الجامعة أو نحتسي القهوة ولما انتهينا ركبت دراجتي واتجهت ناحية السكن الجامعي وقبل دخولي من بوابة السكن سمعت صوت أحدهم ينادي باللهجة المصريه يا حواء وتارة يا إيمان فالتفت ورائي فوجدته د. مراد وباستغراب اتجهت نحوه أرحب به فأسكتني قائلا :

لقد اتفقنا سويا على مايدور بيننا من حديث يكون باللهجة المصريه فضحكت خجلة، ثم أعطاني كتاب ألبرتين الجزء الثامن من كتاب البحث عن الزمن المفقود، وعندما نظرت في ساعة يدي اضطررت للذهاب من أجل قوانين السكن وتبادلنا سلامات الأيدي.

ودخلت السكن وأخبرت الفتاتين بوصول مراد إلى ايرلنغن وعندما سألتني لارا عن سبب مجيئة أخبرتها مما أخبرني إياه بأنه أتى منتدبا في مؤتمر طبي في جامعة الطب في ايرلنغن وسيمكث لمدة أسبوعين فقامت أماني تقفز من سماعها لهذا الخبر وكأنها جُنت أوانها على الأغلب معجبة به وأخذنا نتنابز عليها حتى جلست بجوار لارا تطلب منها أن تهاتفه بحجة الترحيب به في ايرلنغن حيث اتفقا على خروجنا لنزهة معه يوم العطلة.

وفي الصباح ركبنا دراجاتنا وقصدنا الجامعة، ولكن وصلنا متأخرين بسبب مافعله الألمان فكدنا أن تقف قلوبنا من الكركره ولما ذهبنا وجدنا الشارع مزدحما، ووجدنا الألمان ينظمون مسيرة الزومبي أي الأموات الاحياء يلطخون وجوههم وملابسهم بالطين والبودرة البيضاء تعبيرا عن حالة اللامبالين بماحدث في أروقة السياسة وفجأة رن هاتف لارا تقول:

مراد ! فهاتفته وتقول إذن أين أنت ؟ ولما هممت بالرحيل كي أتجه إلى المكتبة أوقفتني لارا، لا تذهبي يا إيمان فمراد قادم إلينا فاعتذرت منها بحجة أنها تدرك طباع السيد غراس ولا أريد التأخير وأنهيت محاضرة د. غراس واتجهت

نحـو قاعـة الأدب استعداد للمحـاضرة الثانيـة فلاحـت لي لارا تشـير إليَّ بيدهـا فذهبـت نحوهـا وجلسـت بجوارهـا، تقـول لقـد سـأل عنـك د. مـراد كثـيرا وكان معظـم حديثـه لمـاذا لم تـأتي؟ ولمـا رأى ان السـؤال مبالغـا عنـكِ قـال أخشـى أن تكـون مريضـة وأجابـت عليـه أمـاني:

- بأنـك بخـير وذهبتـي إلى المكتبـة عنـد بروفيسـور فريدريش غـراس وأتـى بروفسـورالمحاضرة وعـم الصمـت في القاعـة واسـتغرقت المحـاضرة سـاعتان مـن الزمـن وانتهينا وعـلى الفور ذهبنـا إلى السـكن فقضيـت مافاتنـي مـن فـروض ودرسـت دروسي، ثـم قـرأت ألبرتـين .

- وفي الصبـاح الباكـر نزلـت أسـفل إلى الحديقـة وقمـت برياضـة المـشي، ثـم تناولـت فطـوري وارتديـت ملابـسي وذهبـت فـورا إلى الجامعـة لمقابلـة بروفيسـور غـراس لاختيـار موضـوع مناقشـة الماجسـتير قبـل شـهر الأجـازة، وذهبـت إلى قاعـة المحـاضرات فقابلـت د.مـراد وأردت أن أتشـكره مـن أجـل الزمـن المفقـود وباسـتعجال منـي فاجأبنـي غاضبًـا إلى أيـن أنـتِ ذاهبـة ؟

- ولمَ لم أركِ مـع لارا أمـس فانتبـه لحديثـه واعتذر بشـدة وكل مـا أتسـاءله بينـي وبـين نفـسي لم كل هـذا لم يجدر لـك أن تخضعي

إلى تلك تفاهات القلب المحشرج واستأذنت منه بأن يسمح لي بالرحيل لحضور المحاضرة فوقف في وجهي قائلا:

– لن أقبل أي أعذار منك إذا لم تأتين مع الفتيات يوم العطله وتركته واعدة إياه بالقدوم ولما أتى يوم العطلة في الصباح الباكر جدا انتظرنا مراد أمام بوابة السكن وذهبنا معه في نزهة إلى ميونخ حيث شارع ماكسيميليان والحديقة الإنكليزية، والتزحلق على جليد جبال الألب واستادات كورة القدم، ولاعبيها، وشاهدنا تدريباتهم حيث لوّحوا لنا بأيديهم .

– وقبل الغروب ركبنا القطار السريع لنعود إلى ايرلنغن، فاهاتفني د. طارق يخبرني بأن شهر الأجازة قد حان، وعليَّ إخبار الفتيات فلهم حرية البقاء أو العودة إلى الديار، أما إذا اختاروا البقاء فلابد عليهم البحث على سكن خارجي فالسكن الجامعي لايبدأ إلا مع الدراسه وأُخبره بما تميل أنفسهن ولمّا أخبرتهن قالت لارا:

– وماذا أنتِ فاعلة يا إيمان؟

– فأجبتها إنني أريد مثل ما يريد الشباب فالعودة إلى مصر ثم نأتي في بداية الدراسة فقال د.مراد :

- إذا أردتن المكوث فمنزلي يسعكن ولكم ماتشئن فشكرته . أريد العودة إلى الديار واتفقنا على العودة جميعًا وهاتفت د.طارق مرة أخرى لإخباره بالعودة، ثم بدأ مراد الحديث معي عن تلك الرواية وعن أي الروايات التي سبق وقرأتها متشابه معها فتدخلت أماني بحديثها الممل عن الحب والعشق وماشابه تريد أن تعرف وجهة نظرنا عنه وخاصة د.مراد .

- فأجابتها لارا بأنه كل شيء جميل وقال مراد :

- إنها مشاعر متنوعة الأجناس موطنها القلب، وقد كان ردي عليها :

- ولكن إذا أحببتِ أحدهم لاتندفع بمشاعركِ كثيرًا فتندمين، كما لايجب عليك تصديق أقوال الرجال، ولكن صدقي أفعالهم فقاطعتني لارا بأنني لست محقة فأنهيت حديثي بأنها وجهة نظر.

ووصلنا ايرلنغن حين انبطح الليل ودخلنا السكن فأخضعنا لقانون السيدة سيلفيا وبتنا في حديقة السكن، وفي هذه الأيام قد عمل د. طارق جاهدا في ترتيب أمور سفرنا من تجهيز أوراق وماشابه .

وهـا قـد حـان وقـت الرحيـل إلى مـصر بعـد غيـاب قـد طـال مدتـة سـتة أشـهر، فأخذنـا هدايـا لأسرنـا فقـد أخبرنـا د.طـارق أننـا سـنهبط في مطـار الإسـكندرية وقـرب هبـوط الطائـرة هاتفنـي أبي يخـبرني بـأن عمـي ينتظـرني وسـأقيم لديـه حتـى الصبـاح إلى أن يـأتي هـو ويأخـذني.

وهبطـت الطائـرة في أرض مـصر وأخذنـا جميعًـا باستنشـاق هـواء جـو الإسـكندرية المبحـر، ولكـن اضطـرب قلبـي فجـأءة وشـعرت أننـي منقسـمة إلى نصفين نصـف في الهاويـة ونصف في الانحـدار وأدعـو الله أن لا أرى عمـر ووجـدت عمـي ينتظـرني فركضـت نحـوه أعانقـه.

ثـم ذهبـت معـه إلى البيـت حيـث لهفـة انتظـار زوجـة عمـي وعـن علياء التـي شـعرتُ وكأنهـا قـد كـبرت أعوامًـا منـذ آخـر مـرة رأيتهـا فيهـا، أتخيـل ملامـح مريـم وتعرفـت عـلى زوجـة مجـدي وفجـأءة البـاب يـدق إذ هـو عمـر، ولكنـه ليـس بمفـرده قـد أتـى مـع خطيبتـه، وأتي كـي يرحـب بي ويعرفنـي عليهـا، ومـن هنـا قـد تعلمـت أن الابتسـامة وقـت الحـزن تغـير الكثـير وأن الحيـاة تشـبة ركـوب الدراجـة إذا حافظـت عـلى توازنـك سـارت معـك كـما شـئت وكيفـما شـئت .

نادتنـي زوجـة عمي من أجـل الطعـام فاعتذرت منهـا بحجة إرهـاق السـفر وأننـي لسـت متعـودة عـلى الطعـام في مثـل هـذه الأوقـات، فقـد تعـودتُ عـلى قوانـين السـيدة سـيلفيا فأخـذت تحدثنـي عـن نحافتـي وأننـي لا يجـوز إلا أن أنتبـه عـلى صحتـي جيدا .

اسـتأذنت منهـم كـي يسـمحو لي بالخلـود إلى النـوم ودخلـت حجـرة عليـاء، وتناولـت هاتفـي وفتحـت متصفحـه الالكتروني فوجـدت صـورة لـه مـع خطيبتـه، ومـن هنا خاطبـت الحيـاة بأن يجـب أن تدمـل بعـض جروحهـا وفي الصبـاح ارتديـت ملابـسي وأحزمـت حقائبـي أريـد الرحيل .

فهـم عمـي الأمـر بسـبب ماحـدث ليلـة البارحـة فـأصر عمـر بتوصيـلي إلى محطـة القطـار حيـث نظـر إليَّ وحمـل الحقيبـة وسـبقني كـي لا أرفـض منـه توصيـلي فطـوال الطريـق يتحـدث ويسـألني عـن حـالي وإن كان السـفر ممتعـا، وكيفيـة التأقلـم في أوروبـا فكنـت أجاوبـة بابتسـامة في عـين دامعـة، ولمـا وصلنـا محطـة القطـار قـال : ألم تشـتاقين إليَّ وبابتسـامة سـخرية أجبتـه :

– لقـد كنـت مرجـواً قبـل أن تطيـح بنـا ذكريـات المـاضي المتخفيـة بـين أثـواب القلـب الهـش ممزقـة نتيجـة الريـاح القويـة التـي هبـت عـلى قلبينـا وظلـت متدحلبـة إلى داخلنـا بأصواتهـا

التـي تشـبه أصـوات الأشـباح داخـل بيت مظلـم مليـئ بالخيوط العنكبوتيـة تتزاحـم بالمتاعـب كـما تتزاحـم هـي أو كامـرأة غجرية يخـاف أن يتحـدث معهـا أحـد فتشـب نيرانهـا الخامـدة عـلى من حولهـا، ومـاذا عـن مقدار حبـكِ لي ؟ تسـألني عن مقـدار حبك ! فللـه مـا أعطـي ولله مـا أخذ .

وأخــذت حقيبتــي دون اســتئذان وركبــت القطــار دون أن أنظـر ورائــي، وتحـرك القطـار متجهــا بي ناحيــة قريتــي أفكــر بــما جـرى بأنني قـد ذهبـت إليـك بقلـب محطـمِ مفطـورِ أطـرق بابـك علـك تسـاندني هـذه المـره فخرجـت لي وكأنـك رأيـت شـبحًا مـروّدًا أحلامـك تمنيـت أن أعانقك بشـدة فوجـدت تلك المـرأة خلفـك - واضعـة يديهـا عـلى كتفـك الـذي كان منزلقـا بالنسـبة لي- تخـرج تسـألك حبيبـي مـن هـذه السـيدة فلـم أرد إحراجـك عندمـا رأيتـك تتلعثـم وتتمتـم بالـكلام، ومـع ذلـك لابـأس فأنـا مجـرد معرفـة قديمـة لزوجـك ياسـيدتي أجابـت:

-لا، إنـه ليـس زوجـي بـل حبيبـي فنظـرت إليـه وأخبرتـه بأننـي أتمنـى لـه السـعادة مـع غـيري، ولـن تعـود إليَّ مـرة أخرى فحينهـا لم أعـد أكـون صالحـة للحـب، ومسـحت أدمعـي لكـي لاتظهـر ضعـف قـوتي وهـا لقـد وصلـت القريـة، ولم أنسـى كـم السـب والشـتائم التـي تلقيتهـا أنـا وأبي قبـل رحيـلي إلى بـلاد

الألمـان، وهـا أنا قـد عـدت بأقاويـل وأحاديـث جميلـة مزيفة من قِبـل أفـواه أصحـاب الشـتائم، وأصحـاب الألسـنة السـليطة.

ووجـدت أبي ينتظـرني فأوقفـت السـيارة وركضـت نحـوه أعانقـه وأبكـي بشـده فهـدأني، ثـم حمـل حقيبتـي وفـورًا اتجهنـا إلى البيـت عـلى اتفاقنـا بعـدم إخبـار أمـي وإخـوتي معرفـة وصـولي وأننـي سـأمكث عنـد عمـي بالإسـكندرية مـدة يومـين فوجـدت ياسـمينا قـد تخطـت قدمـاه إلى الخـارج فكانـت تلعب مـع الأطفـال في الحـارة فحملتهـا وأعطيتهـا قطـع الحلـوى، ثـم دخلـت البيـت في تسـلل وخفيـة أتمتـع بالنظـر إلى أمـي وإخواتي وهـن مندمجـات في مشـاهدة فيلـم قديـم لسـيدة الشاشـة العربيه فيلـم نهـر الحـب حيـث تدمـع أمـي قائلـةً:

- لقـد اشـتقت إليـك يـا إيـمان، فإنهـا كانـت تحـب عمـر الشريـف بشـدة وأخـذت تمسـح بيدهـا دموعهـا المتسـاقطة فهـي طيبـة القلـب جـدا فكلـما تسـمع صوت سـيارة الإسـعاف المـارة تأخـذ بالدعـاء إلى الشـخص المريـض دون أن تعـرف مـن بداخلهـا إلى أن تـأتي مريـم كـي تضحكهـا قائلـة:

- وفـري دعائـك يا أمـي ولتفترضي أنها مـارة وداخلهـا فارغ لايوجـد بها شـخص مريـض أهكـذا أدعيتـك تذهب إلى السـماء غـير مصحوبـة بالشـخص المصـاب فتنظـر إليهـا أمـي قائلـة:

- يالـكِ مـن شـمطاء هيـا أغـربي عـن وجهـي وإلا صفعتـكِ فتضحـك مريـم بأصـوات مرتفعـة وتركـض مـن أمامهـا .

أمـي تلـك إذا نظـرت إليهـا وجـدت في عيونهـا حنـان العـالم بـأسره تلـك الفلاحـة التـي لم تنـل حظًـا مـن التعليـم قـادرة عـلى إدارة بيتهـا وتربيـة بناتهـا أكثـر مـن تلـك التـي درسـت في الجامعـات التـي تهـدم بيتهـا بيديهـا.

وفجـأة انتبهتـا كل مـن مريـم وزينـب إلى ضحـكاتي وأنـا أنظـر إليهـن في تعجـب، واشـتياق والـدتي التـي اشـتقت إليهـا كثـيرًا فارتميـت في أحضانهـا أُقبـل يدهـا وجبينهـا، وأتـت مريـم تقـول اتركيهـا يـا أمـي دعيهـا تقـص لنـا عـن ألمانيـا وماحـدث معهـا هنـاك، فقـال والـدي دعوهـا تسـتريح أولًا مـن السـفر فأجابتـه والـدتي:

- لا لـن أدعها تسـتريح قبـل أن تتناول طعامهـا لقد أحضرت لهـا الأطعمـة المفضلـة لديهـا، ألم تنظر لقـد نحفت كثـيرا، أجل يا أمـي لقد اشـتهيت طعامـك كثيرا ولم أتنـاول مثله إلا مـرة واحدة عندمـا كنـا في بيـت د. مـراد ببرلـين، ولكـن لاتقلقـا فإنه مسـلم وأن مـن تحـضر هـذه الاطعمة سـيدة مصرية تـأتي إليـه وتحضر له هـذة الأطعمـة مرة كل أسـبوع لطوال الأسـبوع .

وقصصت عليهم ماحدث في ألمانيا بالتفصيل عن السكن الجامعي، وعن السيدة سليفيا، وعن مناداتها لي يا فتاة الحجاب، وعن حزمها وقوانينها التي تبدا من ساعة الاستيقاظ إلى ساعة المبيت، وعن وسائل المواصلات ودراجتي التي أطليتها باللون الوردي، وعن هداياهم التي أهديتهم إياها عن بروفسيور فريدريش غراس، عن سهر لارا وأماني بجانبي وقت مرضي فسألني أبي عن حال التأقلم بين الديانتين فأجبته :

- بأن لافرق بين الأديان صحيح إنني أخشى من تناول أطعمتهم، ولكن تعاملهم في توادهم وتراحمهم يفعلون مثل مايأمر به الدين الحنيف فالمجتمع الألماني لا يفرق بين مسلم ومسيحي بين مغترب وصاحب وطن فإن المجتمع الألماني يتميز بعلاقته الاجتماعية الباردة، كما أنهم غير متطفلين ولكل شخص آراءه التي تخصه وغير مهتم بنظرة غيره ولديهم طابع الاحترام للمغتربين لا ينظر إليهم سوى أنهم آدمين أتوا للاستفادة منهم فقط .

- ومن خلال معاملتك الحسنة لهم يستطيعوا أن يعطوك ثقتهم، فإنهم شعب لطيف يهتم بالذوق الرفيع والمظهر الحسن، كما لنا أجازات على حسب المناسبات الدوليه في

ألمانيـا، فهناك عطل رسـمية لجميع مـدن ألمانيا كرأس السـنة، عيد الغطـاس، والجمعـة العظيمـة، وعيـد الفصـح، وعيـد الصعـود، وعيـد العـمال، وعيـد يـوم الوحـدة الألمانيـة فأكثرهـا أجـازات مـن أجـل الديانـة المسيحة كـما تعلمـون فإنـه مجتمـع مسـيحي .

– ويوجـد أيضـا عطـل في بعـض البـلاد وخاصـة بافاريـا كعيـد كوبـورس كريسـتي، وعيـد انتقـال السـيدة العـذراء . وفـترة اسـبوعين قبـل بـدء الامتحانـات وانتشـار الجامعـات في القـري الصغـيرة كيـف مـاكان نوعهـا وكل زاويـة مـن زوايـا أي مدينـة خاضعـة للبحـوث الجامعيـة مـن حيـث الاقتصـاد والتقنيـات والجغرافيـة وعلـم النفـس وعلـم الاجتـماع، لايمكـن فصـل أي فـرد مـن المجتمـع الألمـاني عـن البحـوث العلميـة الجامعيـة .....

أمـا الجامعات الطبية فهـي موجودة في كل مستشـفى، وفي كل دار عجـزه ويـدرس الأخـلاق والرحمـة قبـل أن يصبـح الطبيـب طبيبـا ويجـب عليـه أولا أن يقـوم بتمريـن تطبيقي أولي مـدة ثلاثة أشـهر في دار العجـزه لكـي يمسـح غائط الرجـل والمرأة المسـنة .

ولا يعمـل الطبيـب في ألمانيـا بالمستشـفى فقـط، بـل في مستشـفيات الأمراض العقلية والنفسـية .... المستشفيات منتشرة في ربـوع المدينـة فـدارس الطـب هـو أكثـر فئـة يجـد الصعوبـة في

منهلـه الـدراسي ولذالـك تعـد ألمانيـا أكثر بـلاد أوروبـا تقدمًا في الطـب عـن أي بلـد آخـر فيأتوهـا النـاس مـن كل أنحـاء العـالم مـن أجـل شـفائهم، وهـي متسـاوية تقريبـا كلهـا في التجهيـزات والأطـر، هـذه الأ طـر هـي أبنـاء الشـعب والمغتربـين، ولا يمكن أن يتدخـل وسـيط أو دفـع رشـوة لكـي يـدرس أحـد الطـب أو الهندسـة أو أي فـروع أخـرى .

ألمانيـا تسـتثمر في الإنسـان لأنـه هـو مسـتقبلها ..الطالـب، القـاضي، الشرطـي، الوزيـر و البرلمـاني .. لا يحتـاج وسـاطة ولا يولـد في ألمانيـا طفـل وفي فمـه ملعقـة مـن ذهـب، بـل ولـدوا جميعًـا متسـاوون أمـام القانـون ولديهـم الجميـع الحـق في التعليـم والصحـة والطـب والعمـل .

فهناك عندما يحيا الضمير البشري تحيا معه القلوب.

كـما أيضـا يحـق للمغتبريـن الحصـول عـلى الجنسـية في حالتي التعليـم والـزواج، فإذا كنـت تدرس الطـب والهندسـة فلابد من المكـوث في ألمانيـا لمدة خمس سـنوات للحصول على الجنسـية، أما باقـي الشـعب التعليميـة الأخـرى مثلهـا مثل من ذهـب من أجل العمـل والـرزق فلابـد مـن المكـوث عـشر سـنوات، فالحصـول عـلى الجنسـية تحقق للمغـترب الكثـير والكثير من حقـوق امتلاك عقـارات ووظائف مرموقـة وغيرها.

كـما التحقنـا بـدورات الدفـاع عـن النفـس للسـيدات لمـدة يـوم كل أسـبوع، كـما يوجـد هنـاك محـل تصفيـف شـعر لسـيدة تُدعـى مريانـا في نفـس الحـي الـذي نسـكن فيـه حيـث تعمـل تسريحـة شـعر مجانية يـوم أيضًـا في الأسـبوع، وكل هـذا بالمجان .

وذات يـوم أتـت إلينـا فتـاة دمشـقية تـوزع علينـا ورق دعايـة لمسـاعدة الأطفـال ذوي الاحتياجـات الخاصـة وأن هـؤلاء الأطفـال يقمـون بعـروض مسرحيـة ويشـكلون فـرق تمثيلـة في إحـدى الحدائـق تشـجيعا لهـم، فكنـا نذهـب إليهـم كل خميـس لقضـاء أمسـياتهم .

ومـرت الأيـام وانقـضى شـهر الأجـازة، وقـد حـان وقـت السـفر والترحـال مـرة أخـرى وغـادرت بقلـب حزيـن حاملـة معـي بعـض الهدايـا المصريـه التذكاريـة وفـور وصـولي إلى ايرلنغـن أخـبرني بروفيسـور غـراس أنـه يجـب المتابعـة والتركيـز جيـدا مـن أجـل أن أسـتعد للاختبـار أي مناقشـة الماجسـتير .

وبعـد عنـاء دام خمسـة أشـهر حصلـت عـلى درجة الماجسـتير في الأدب وحصلـت عـلى درجـة أعـلى مـن لارا، وأمـاني التـي كانـت في تخصـص غـيري، حيـث أصر إليـاس أن يقيـم حفلـة صغـيرة مـن أجـل لارا وحصولهـا عـلى الماجسـتير وشـارك بالحفـل د. طـارق بـروف غـراس ود.مـراد وبعـض الأصدقـاء

مـن السـكن الجامعـي كـما حـضرت الحفـل السـيدة سـيلفيا، وكان حفـلا مرحـا بـه تغنينـا وشربنـا المياه الغازيـه الخاليـه مـن الكحـول.

ولكـن قـد اقـترح بـروف غـراس بعـدم رجوعـي إلى الوطـن وأمكــث هــذا الشــهر في البحــث عــن موضــوع الدكتــوراه، ومكثـت في بيـت مغتربـات مـع فتيـات مـن دول عربيـة أكثرهن سـوريات مـدة هـذا الشـهر وظللـت أذهـب إلى المكتبـات العامة لكـي أحصـل عـلى معلومـات كافيـة تكفينـي لبحثـي العلمـي .

وعملـت نادلـة في مطعـم لتقديـم الوجبـات السريعـة لكـي أؤمـن إيجـار السـكن ومصاريـف الطعـام، وبـدأت الدراسـة الجامعيـة في ايرلنغـن واجتمعنـا مـن جديـد في السـكن الجامعـى فسـلكت منهـج أبحاثـي عـن الأدب العـربي والغـربي في القـرن التاسـع وذهبـت مـع بروفيسـور فريدريـش غـراس بـإذن مـن الجامعـة بالسـفر إلى برلـين مـن أجـل الذهـاب إلى المركـز الإسـلامي الأوروبي حيـث يُعـدُ أكـبر المراكـز وأكـبر مكتبـة إسـلامية في أوروبـا، وسـمحت لنـا الجامعـة بالذهـاب والعـودة في نفـس اليـوم واسـتغرقنا طيلـة النهـار مابـين الكتـب التـي أفادتنـي كثـيرا.

ولكن أحيانًا يسير القدر حيث لا نهوى وفجأءة تغير الطقس من الطقس البارد إلى الطقس الغائم مما أوقف حركة الطيران وبدأ الجو يتساقط بعدما أخبرتنا موظفة الاستقبال في مطار برلين بأننا لا نستطيع الذهاب بسبب حالة الطقس الغائم الغيوم السوداء .

ووقفنا خارج المطار تحت مظلة بروفيسور غراس ننتظر سيارة تقلنا إلى أحد الفنادق كي نذهب صباحًا متوجهين إلى ايرلنغن فوجدنا سيارة تصطف أمامنا وإذا هي سيارة مراد فنزل من السيارة وأصر علينا أن نصعد معه فنظر بروف غراس إليَّ تارة وتارة إليه، وقال :

- هل سبق لي وأن رأيتك فألقى مراد التحية عليه بأسلوب راق مع انحناء ظهره البسيط له، وقال :

- أجل بروف سبق لي وأن تعرفنا في الحفل الراقص حفل حصول الفتيات على الماستر فتبسم له بروف، وقال :

- أجل أعرفك وصعدنا إلى السيارة واستضافنا مراد في بيته وأحضر لنا الحساء الساخن وأتى إلينا مراد بملابس جافة فرفضت أن أرتدي من ثيابة بشدة فأمرني بروف غراس بأن أرتدي تلك الثياب يذكرني بماحدث لي في ذاك اليوم الماطر بسبب عنادي وكبريائي وارتديت ثيابه الجافة

الواسعة والطويلة بعض الشيء حتى قدَم لي غطاء رأس من الصوف بدلا من الحجاب الذي ابتل من المطر وقام قائلا :

سوف أحضر لكم شيئًا تتناولوه فهاتف بروف غراس شئون الجامعة يخبرهم بصعوبة الرحيل من برلين .

وفي المساء كنا جالسين على مقربة من الموقد للتدفئة هاتفتني زينب فاندهشت بقلق لأنها للمرة الأولى تهاتفني من هاتفها، فعادة أحدثهم عن طريق التواصل الاجتماعي أو عن طريق هاتف والدي الآن لقد تأخر الوقت بالنسبة لفرق التوقيت بين برلين ومصر فتركت فنجان قهوتي وأجبت على الهاتف إذ زينب تتحدث بصوت مختنق فلم أفهم ماتقول فأخذت الهاتف وحدثتها خارج غرفة المدفئة التي كنا نحتسي القهوة فيها وفجأءة ازدادت نبضات قلبي وصدر مني كلمة ماذا بصراخ ولم أشعر ماحدث لي بعدها وعندما أفقت وجدت الثلاث رجال يجلسون بجانبي يتحدثون ولما انتبهت عليهم كفوا عن الحديث، وساعدني مراد على النهوض على ساقي .

لقد أصبحت الآن يتيمة الأب مات أبي ولم أتمكن من شم رائحته فعندما نصاب بالقهر والكبت نفقد الكثير من الأشياء وندرك أنها لم تعد كما كانت فنفضل الصمت

حتـى تأتينـا الدنيـا بريـاح هوجـاء تحركنـا كـما تشـاء ومتي تشـاء ونحـن صُـم إلى أن نتمنـى احتضـان القبـور بـدلا مـن شرزمـة هـذا القلـب الـذي طـرأ عليـة علامـات الصـدأ حتـى نصبح لا نتـولى أمـور أنفسـنا وأن البعـض محق في تغـير حياتنا عن أنفسـنا .

ومـرت الأيام وأنا جالسـة في ألمانيا أجتهد في دراسـتي لتحقيق حلـم أبي ومشـهد تصويـري أمـام عينـي لمبنـى ضخم بـه قاعات للمناقشـة العلميـه في القـصر الثقـافي التابـع للجامعـة وفـوج من الطـلاب يرتـدون مثـلي تلك الثيـاب السـوداء الفضفاضـه وقبعة التخـرج نجلـس عـلى مقاعـد يأخـذ كل واحـد منـا دوره عـلى حسـب رقمـه، المناقش يجلس أمـام أربعة من الأسـاتذة ويقومون بطـرح الأسـئلة عليه وهو يناقشـهم وحان وقـت دوري وأخذت تلـك السلسـال يـس خاصـة مـراد مـرة أخـرى وكانت المناقشـة حو ل :

تحدثـي عـن الأدب ونزوحـة في القـرن التاسـع عامـة؟ ومـا الفـرق بـين الأدب العـربي والغـربي في القـرن التاسـع أيضًـا؟

وناقشـتهم حتـى قصصـت طرفـة سـاعة شـارول مـان التـي أهدهـا إيـاه هـارون الرشـيد حيث ضحك الأسـاتذة مـن الطرفة وانتظـرت مـع جميـع الطـلاب ومـع السـادة الحضـور إلى أن تمت مناقشـة الجميـع وحـان وقـت إظهـار النتيجـة فـكان هـذا اليـوم طويلا جـدا بالنسـبة لي.

وفجـأة عـمَّ الهـدوء والصمـت مـن قبـل المدعويـن في القاعـة وجلسـت وبجانبـي لارا وبـروف غـراس وكان مـن المدعويـن د.طـارق، د. مـراد، والسـيده سـيلفيا وأعلنـت النتيجـة بـأن الطالـب الأول الحاصـل عـلى شـهادة الدكتـوراة في مجـال الطب قسـم الجراحـة العامـة الطالـب الجزائـري زيـن العابديـن محمـد والثـاني في مجـال الأدب الطالبـة المصريـة إيـمان مجـدي لحصولها عـلى شـهادة الدكتـوراة مـع المرتبـة.

ولمـا سـمعت أذني هـذا الـكلام كاد قلبـي أن يتوقـف عـن النبـض ففاضـت عينـي ومـا وجـدت إلا د.مـراد بجانبـي يقـول لي هيـا اصعـدي وخـذي شـهادتك الدراسـية وأخـذ بخاطـري فـكان احتوائـه لي كوطـن أركـض بداخلـه حتـى أنتهـي في مطـاره، وابتسـمت لـه وصعـدت وحصلـت عـلى شـهادة منحتـي الدراسـية .

واسـتغرقت أيـام الرجـوع إلى الديـار يومـان مـن وقـت حصـولي عـلى الشـهادة وانقـضى اليومـان في توديـع صديقـات السـكن الجامعـي والسـيدة سـيلفيا التـي كانـت لأول مـرة في حياتهـا تجلـس وتتسـامر معـي عـن حياتهـا الشـخصية عندمـا سـألتني مـاذا سـيحل بي بعـد الرجـوع إلى مـصر فأجبتهـا :

- بأنني سأبحث عن وظيفة حتما فضحكت وقالت :

- لا بل تتزوجين أولاً ثم الوظيفة فالعمر يمضي بخطي عجولة جدا ولا تستطيعي أن توقفيه وأعرف جيدا أنك تندهشين من حديثي لكِ فأنا أعلم أنكم في ديانتكم تستعجلون بأمور الزواج ولتعلمي ياعزيزتي أنا لم يتبقى لي أحد ولم أتزوج ووهبت نفسي لخدمة الرب .

- أعتقد أنك كنت تفوقين البنات جمالا في عمر العشرين ولما اخترتِ أن تكوني راهبة بدلا من أن تكون أم ولديك عائلة وأسرة فكان يتناوبني الفضول لمعرفة لماذا السيدة رفضت الزواج؟

- فسألتها ألم يكن لديك أقارب فأنا منذ أن أتيت لم أجد أحدا أتى لزيارتكِ أجابتني:

- أما عن والداي فقد ماتا عندما كنت في الثانية عشرة فقدتهما في حادث سير وترعرعت في بيتنا مع خالتي إلى أن التحقت بالجامعة، كنتِ شابه جميلة أليس كذالك ؟ فضحكت وقالت :

- انتظري سوف أقص لكِ عندما كنت في الجامعة أغرمت بأحدهم كان يسبقني بعامين كان قائد فريق كرة السلة للجامعة فكان وسيم للغاية، أجل، فكانت الفتيات يركضن نحوه، وكان لديه معجبات من خارج الجامعة فكنت أحكي

عنـه لصديقتـي المقربـة حتـى تجـرأت ذات يـوم بعدمـا أشـارت إليَّ صديقتـي بـأن أعـترف لـه أننـي أحبـه في جـواب ووضعتـه في صنـدوق ملابسـه الرياضيـة الـذي كان في الجامعـة وبالـكاد كتبـت لـه الرسـالة بحجـة أن أهنئـه بفـوزه بالبطولـة والـكأس، ولكنـي خجلـت أن أوقـع باسـمي أسـفلها ووضعتهـا في دولاب ملابسـه وراقبتـه مـن بعيـد لبعيـد حتـى وجدتـه يفتـح بـاب الخزنـه لديـة ورأيتـه وهـو يفتـح الورقـة كـي يقرأهـا.

- فخجلـت كثـيرا عـلى إتيـان إحـدى الفتيـات إليـه كانـت فتـاة جميلـة ووقفـت أمامـه ونزعـت منـه الرسـالة وألقتهـا عـلى الأرض، ثـم قامـت بتقبيلـه وسـارا سـويا ودهسـت الرسـالة بأقدامهـما فكـدت لم أسـتطع الوقـوف فجلسـت عـلى الأرض ولم أسـتطع حبـس أدمعـي.

- وظللـت أبكـي مـن الحـسرة فلمحنـي وهـو عائـد يأخـذ مفاتيحـه المتروكـة في بـاب الخزنـه فوجـدني فتقـدم نحـوي قائلا مـاذا بـكِ يـا آنسـة ؟ أأصابـكِ مكـروه ! فـكان ذا أسـلوب نمـق وخاصـة لـدى السـيدات مثـل ذاك الطبيـب مـاذا كان اسـمه ؟ أجـل تذكرتـه مـراد كان يشـبهه كثـيرا .فتبسـمت اليهـا قائلـةً :

- ولمـا د. مـراد ؟ اجابتنـي : لا أدري لقـد ذكرني بـه فحسـب .

- ومــاذا حــدث إذن ؟ لا شيء فتســاءلت عــن تلــك الفتــاة علمــت أنهــا ابنــة رجــل ريــاضي مشــهور وأنــه قــد تــم خطبتهــا، ومــن حينهــا لم أفكــر إلا في دراســتي واعتزلــت فكــرة الــزواج والحــب ومن حــوالي ســنه تقريبا قابلته في الســوق صدفــة يداعب طفلــة صغيرة في ســن الرضــاع ووقفت أنظــر إليه وهــو لم يتعرف عليّــا ولو لمــرة ......

وهيــا لقــد تحدثنــا كثــيرا ســنتأخر عــلى الحفــل الــذي أعــده بــروف غــراس وإليــاس مــن أجلــك فطمئنتهــا بــألا تقلــق ولا تحــزن لعلــه خــير وعانقتهــا .

فمعظــم حياتنــا تنتهــي بمجــرد أن تزورنــا آلام العشــق بالرغــم مــن اختــلاف الأجنــاس فمصــدر القــوة والمشــاعر واحــد وجميــع مــن تعايــش ألم الفــراق مــن جنــس واحــد ومــن روح واحــده، ولكــن أيهــا الحــب المبهــم مــن يســتطيع أن يعيــش أو يتعايــش بدونــك .

وتمشــينا ســويًا إلى الســكن وصعدنــا لتجهيــز أنفســنا وحــل المســاء وأتــى إليــاس يصطحبنــا إلى قاعــة صغــيرة خاصــة بالمناســبات ودخلنــا جميعــا فرحــين الحفــل وقامت كل من ســارة وأمــاني باصطحــابي إلى منصــة الرقــص وتراقصنــا وراقصــاني حتــى شــعرت بــدوار وبالتــالي لم أجــد أحــد بجانبــي ســوي مراد

فقـدم لي مقعـدًا وأجلسـني عليـه وقـام بإعطائـي الميـاه الدافئـة .

وقـرب انتهـاء الحفـل آتـاني بـروف غـراس يودعنـي قائـلاً سـأفتقدكِ كثـيرا يـا فتـاة الحجـاب فسـوف أحكـي عنـك لأحفـادي كـم كنـتِ متفوقـة في دراسـتكِ وسـوف أتقاعـد عـن العمـل ولـن اذهـب حتـى إلى الجامعـة سـأمكث أعلـم أحفـادي الفضيلـة، والعـادات الحسـنه ومـا يخصهـم إلى أن ينتهـي أجـلي فتوسـلته بـألا يفعـل ذاك فقبّـل يـدي وغـادر، فقلـت : وأنـا أيضًـا سـأفتقدك كثـيرا ياجـدو اينشـتاين.

وأمـا عـن مفاجـأة إليـاس لـلارا فقـد أمـرني بـأن أغطـي وجههـا، ولمـا فعلـت ذلـك أخـرج لهـا مـن جيبـه مفاتيـح، وعندمـا نزعـت الغطـاء سـألته مـا هـذه المفاتيـح أهـذه هـي المفاجـأة ؟! إذ هـي مفاتيـح بيتهـما في برلـين الـذي سـيتزوجان ويقضيـان عمرهمـا فيـه، ففرحـت جـدا واحتضنتـه .

خُفضـت الأنـوار وكل فريـق يرقـص مـع الآخـر وكنـت لأول مـرة أرقـص فيهـا مـع شـخص، لقـد خجلـت كثـيرا وكنـت أشـعر وكأن طاقـة بـركان قـد هبـت عـلى وجهـي، وظللـت أتلعثـم خجـلا عندمـا كان ينظـر في عينـي كنـت أخطتفهـا إلى أسـفل حتـى لم أكـن جيـدة بالرقـص فدهسـت قدمـه عـدة مـرات .

وكنت أحاول من خجلي أن أترك يده، ولكنه كان مستمسكا بيدي بكل قوته إلى أن انتهت الرقصة الأولى وتشكرته بخجل وجلست على المقعد وتحدثت مع د. طارق عن أمور السفر والرحيل حتى أتت إلينا أماني وقالت : أتمنى ألا أغادر .

وإذا بفتى صديق للشباب أتى ليحضر الحفل ومعه آلته الموسيقية، وقام بالعزف عليها وأبهر الجميع بعزفه، وكانت هي بداية الرقصة الثانيه التي ابتدأها إلياس ولارا، وقمت وتراقصت مع الفتيات فأتى مراد يستأذن بأن يسمحوا له بتركي له وترقصت معه قائلة :

- أخاف أن يجري بنا اللحن فتدهس قدمك مرة ثانيه أجابني بأسلوبه الهاديء :

- لا عليكِ سيدتي ولكن كي تتعلمي فن الرقص فلا تنظري لأسفل، انظري إلى أعلى ولكِ أن تنظري في عيوني، أعلم أنكِ تقعين خجلا مني وليكن فلنتناقش في أمر ما فقلت له أي أمر؟ أخبريني ماذا تنوين فعله حين عودتك إلى الوطن ؟

- لا أعلم كيف تعطيني كل هذا الكم من الطمأنينة التي هي أقوى من كل قوىَ الحب كلما نظرت إلى عينك الرماديتين

الناعستين، وتلك التجاعيد البسيطة حولهما، لما تمنحني كل هذا الشعور بالأمان، بالراحة بالسلام لما قضيت على كل علاقة مشوهة وملوثة بداخلي .

- أوه إلى أين ذهب عقلك مني ؟ عذرا

- أين شردتي؟

- ألم تخبريني على ماذا تنوين فور عودتك إلى الديار؟

- لا أعلم ولكن سأبحث عن وظيفة .

- لكِ أن تبحثي عن وظيفة هنا وتستقرين في ألمانيا .

- لا أريد، أريد أن أكون مع أمي وأخواتي، أعلّم أبناء وطني ماتعلمته في الغرب .....

وانتهى الحفل الراقص وذهبنا مباشرة نحو السكن واستلقينا على الفراش بثيابنا وفي الصباح هاتفني مراد يصر على مقابلتي واحتساء القهوة سويا فوافقت، وركبت دراجتي ولاقيته ينتظرني على ناصية الشارع للسكن وذهبنا وجلسنا في مكان عام، وطلبنا القهوة سألني قائلاً :

إيمان ماذا أعني لكِ أجبته بالألمانية أنت أكبر من كلمة صديق، فانفعل بعض الشيء قائلاً :

- أرجوكِ لقد اتفقنا سويا عندما نكون نتحدث تتحدثين معي بالعربية متفقين بأن لامجال للألمانية بيننا.. واعترفت له ببعض الأمور لا أعرف إذا كان قد اتخذها هراءً أم إنه قد أخذها بحمل الدعابة .

وبعد مرور ساعة من الوقت هاتفته سكرتيرته تخبره بحالة طارئة لطفل وتخبره بموعد عمليته، وأن الطفل لا يتحمل الألم ولم يكف عن الصراخ حتى شحب وتغير لون بشرته، كما أخبرته بأنها حجزت له طائرة إلى برلين وموعدها بعد نصف ساعة، واعتذر مني وغادر إلى المطار على الفور من أجل إنقاذ قلب طفل لم يتجاوز عمر السنة والنصف فأتى إلينا د. طارق يخبرنا باستعدادنا للرحيل .

وذهبنا مودِّعين ايرلنغن بحياة جديده لنا في ديارنا ووطننا، ولم يمر الوقت الكثير من رجعونا فأتاني ظرفًا بريديًا من ألمانيا، فكان هذا الظرف يخبرني بقرب انتهاء أجلي، فالحياة ما هي إلا الركض وراء أحلامنا الوردية، ولكن عندما نصطدم بالواقع نجده سرابًا بقيعة يحسبه الظمأن ماء حتى إذا جئناه لم نجده شيئا، وقد يأتيك الصباح وليلك لم ينجلي بعد. ....

ثــم وجــدت بــين طيــات الأوراق صــورة ورقيــة قديمــه مرســوما عليهــا قلــب باللــون الأحمــر وســهمان بيهــما حرفــان يرمــز أحدهمــا لعمــر والآخــر إيــمان ثــم في صفحــة أخــرى زهــرة اوركيــدا ملتفــة في نفســها جافــة الأوراق مكتــوب عــلى كل ورقــة فيهــا مــراد.........

وهــذا آخــر ماخطتــه تلــك الحــواء في أُمســياتها بآمــال محلقــة مثــل النجــوم في وســط قلبهــا الممــزق، باحثــة عــن شيء ظــل يبحــث عنهــا.

ولكن قد تناوبني الفضول في معرفة حياتها بعد ....

على ماذا تبحثين وتفتشين ياسندرا ؟

- أمــي أريــد أي دليــل ليوصلنــي بصاحــب البيــت الســابق د. مــراد .

- لا ادري ياعزيــزتي ولكــن يمكنــكِ أن تنتظــري والــدكِ يمكــن أن يعــرف عنــه شيء، ولكــن لمــاذا؟

- إنني أريده فحسب، ومتي يعود أبي ؟

- في الغالب مساءً

ودخلت حجرة المكتبه مرة أخرى أبحث عن أي شيء يدلني وسئمت من البحث حتى المساء وعاد أبي إلى المنزل في العاشرة مساءً ونزلت إلى أسفل عندما سمعت صوته ينادي علينا كي نتناول العشاء سويا، وركضت مسرعةً نحو الأسفل حيث أبي أريد أي دليل يوصلني بد. مراد صاحب البيت السابق على ما أظن أنه يعمل في المستشفى العام هنا في برلين، ولكن انتظري عندما ابتعنا البيت كان معي عنوان ورقم هاتف صديقه السيد إلياس فإذا توصلتي إليه سيوصلك إلى د. مراد .

وانتظرت إلى أن تجلى الليل حتى أتت الساعة الثامنه صباحًا واتجهت إلى عنوان السيد إلياس وهاتفته في طريقي فلم يجب، وذهبت إلى العنوان أتمنى ألا يكون قد غير محل إقامته، وطرقت الباب إلى أن فتحت زوجته فقلت :

– أرجو ألا تسيء فهمي فأنا أسأل عن د. إلياس لكي يخبرني أين يمكنني أن أجد مقر د. مراد، فأخبرتني السيدة إلياس بأنه غير موجود الآن وأنه في عيادته فاستأذنت منها إن كان يمكنني أن أعود مرة أخرى، وغادرت بيت إلياس ويتناوب زوجته الفضول حيال الأمر .

وظللت لمدة أسبوعين لم أتمكن من رؤية السيد إلياس تارة في بيته وتارة أخرى في عيادته إلى أن شاء لي الرب

بمقابلتـه حينهـا أخـبرني بـأن د. مـراد في مؤتمـر طبـي في أمريـكا قـد يسـتغرق سـتة أشـهر .

وعلمـت مـن حديثـه أن زوجتـه كانـت رفيقـة درب السـيدة إيـمان وتركـت إليـاس وذهبـت متجهـة نحـو بيتـه وطلبـت أن أعـرف عنـوان إيـمان وعمـر في مـصر مـن زوجتـه فـإن الحديـث عنهـا مـن جميـع الأطـراف يزيـدك حماسـا في إتمـام القصـة وأخبرتنـي عنهـا السـيدة لارا بـأن إيـمان بالنسـبة لهـا ليسـت صديقـة فحسـب، بـل إنهـا كانـت تـرى فيهـا محـرم خلاواتهـا فاندهشـت السـيدة بشـدة عندمـا تفوهـت بكلمـة عمـر وأخبرتهـا بحقيقـة الأمـر ووافقتنـي وأعطتنـي عنـوان أهلهـا وعنـوان عمـر دون أن تقـول لي شيء ممـا اريـد معرفتـه.

وذهبـت إلى البيـت أحـزم حقائبـي للاسـتعداد إلى السـفر إلى مـصر وحجـزت تذاكـر السـفر وهبطـت في مطـار الإسـكندرية، وأقمـت في فنـدق هنـاك وعانيـت الكثـير مـن مقابلتـه فتبـين لي أن معرفـة الحقيقـة عـن تلـك الحـواء المصريـة لم يكـن سـهلا وكأنهـا جاهلـة التاريـخ المنسي أو كأنهـا آلـه مختبـأة تحـرك مشـاعر مـن حولهـا أو أنهـا سـونيا جراهـام تلـك المـرأة التـي تغـزّل فيهـا أعظـم شـعراء الغـزل ومثلوهـا للفتنـة الطاغيـة والتـي أسـهب في وصفهـا عباقـرة الأدبـاء ....

ولقد قنعت منه بموعدٍ بعد مشقةٍ فكان رجلاً شاحب اللون ذا لحية ثقيلة وشعر طويل ينبت من منتصف رأسه، يطرأ اللون البني أسفل عينيه، وكأنه لم يشاهد العالم من قبل أو تظن أنه كان في مصحة لعلاج الإدمان، ولكن ليس علاجًا من إدمان المخدرات، ولكنه من إدمان الحب، شرهًا في تناول السجائر.

شرحت له الأمر بأنني ابنة لإحدى صديقاتها وأردت أن أروي قصة حياة أمي وأصدقائها المقربين، وكانت منهم السيدة إيمان وعلى مايبدو أنه قد صدّق كذبتي وقد أفادتني اللهجة السوريه كثيرا في مصادقية الأفعال والكلمِ وبدأ يروي لي قصتها منذ البداية .

كانت كأحضان أمي أذهب إليها كلما أردت أن أنسى همومي، كبركان خامد أعلاه نيران هائلة ومن أسفله ذهب ذائب، إنها ابنة عمي المتوسطة، لم تكن أجازة الثانوية العامة لها كمثل أي أجازة مما سبق فكنا نراهم من الصيف إلى الصيف، ولكن هذه المرة قد شغفتني عشقا منذ أن رأيتها تجلس تقرأ في أحد الكتب الألمانية على الشاطئ أراقب خطواتها في صمت .

عندما رأيت الجميع مستمتعا وهي جالسة ممدّدة على الشاطيء تقرأ في تلك الكتب ولم تتقدم خطوة نحو الماء وأطالت الجلوس ولم ترفع وجهها من هذه الكتب فذهبت إليها جالسًا بجوارها، وكانت هي المرة الأولى التي أحدثها فيها منذ أن كنا صغارا، ولتعلم فيأتي عمرا معينا تشعر الفتاة بالخجل من شاب يقربها في العمر قائلا:

- إن الماء جميل وممتع للغاية ألا يروق لكِ؟ ستظلِ تقرأين وتنسي أمر الغوص أم أنكِ لا تجيدين السباحة؟

فنظرت إليَّ بنصف عين مقفولة بسبب ضوء الشمس الذي يأتي قبل غروبها وتفوهت بكلمة واحدة: لا أرغب.

وأخذت تتصفح ورقات الكتاب وقبل الذهاب من الشاطيء ليس بقليل أعطت مريم أختها الصغرى كتبها ثم توجهت مباشرة إلى حوض السباحة الذي كان خاليا، ثم وقفت شامخة وأحنت جسدها حتى جعلته على شكل قوس وقفزت في الماء تسبح وتغطس، وظللت أراقبها في صمت إلى أن ذهبنا إلى البيت وقامت بتغير ثيابها وتوضأت وارتدت لباس فضفاضة وقامت تصلي وخرجت كي تستأذن من الجميع لكي يسمحو لها بالخلود إلى النوم.

كانــت تنــام مبكــرا وتســتيقظ مبكــرا وظلــت الأسرتــين منشــغلتين بتحضــيرات زفــاف أخــي مجــدي وعند اقــتراب موعد زفــاف أردن الفتيــات أن يبتاعــو بعــض الأشــياء خاصتهــم مــن مســاحيق تجميــل ومــا شــابه فأمــرني أبي بإصطحابهــن إلى إحــدى المتاجــر فكانــت دائمــة الصمــت .

وســيرنا كل مــن مريــم وعليّــا أمامنــا وأنــا وهــي وراءهــم، ودخلنــا ذاك المتجــر ولمــا رآهــا أحــد العاملــين بــه أتاهــا أحــد الشــباب يقــدم لهــا سلســال ويقــول لهــا:

- هــذا ســيكون رائعًــا إذا وضعتيــه عــلى عنقــك فنظــرت إليــه بقســوة، لا شــكرا، لا أريــده وذهبــت ووقفــت مــع الفتاتين فذهــب وراءهــا ذاك الشــاب يســألها عــن اســمها فأجابتــه :

- حــواء ثــم أتــت متأففــة ووقفــت بجانــب البــاب تريــد الخــروج فســألتها مــاذا كان يريــد هــذا الشــاب ؟ فأجابتنــي يريــد أن يعــرف اســمي وأجبتــه بحــواء فتناوبنــي الفضــول لمــا لا تخبره عــن اســمها الحقيقــي ولمــا رأت الدهشــة عــلى وجهــي قالــت:

- إنــه ليــس من أهــلي كي أخبره عن اســمي الحقيقــي وتحدثت بهــذه الطريقــه الحادة فــلا تخضعن في القــول فيطمع الــذي في قلبه مــرض فصمتُ مندهشــا من ردة فعلهــا وســيرنا في الطريق بعدما أصرتــا بأنهــن يفضلــن الذهــاب إلى البيــت ســيراًعلى الأقــدام

فسعلت عمدًا، ثم وضعت يدي على فمي ؟ فتحدثت وهي ناظرة أمامها ألا تريد أن تخبرني لما تطيل إليّ النظر هكذا ؟

فتلعثمت بشدة، وكل مايدور في ذهني كيف لمحتني وأنا شديد النظر إليها وهمست بصوت خفيف مرتعش فإنكِ حقا تشبهين فلسطين بشكل مخيف . قالت: كيف ؟ فاندهشت أكثر كيف سمعت؟ فرددتها مرة أخرى تنظر إلي مطأطة الرأس كيف؟

فأجبتها بارتباك : جميلة قوية وألف عدو يتمناكي . فنظرت بابتسامة عريضة ثم تريثت

أين قرأت هذه الجملة؟ في كتاب أشعار نزار قباني أليس كذاك؟ لا .

لقد قرأتها على صفحتي في متصفحي الالكتروني فأعجبتني والآن عندما اكتشفتك رأيتها وكأنها توصفك أنتِ.

وفي خجل شديد شكرا لكَ. وسيرنا صامتين نستمع إلى صوت ضحكات علياء ومريم ونضحك على ضحكاتهم، ووصلنا البيت فوجدنا خالتها المتزوجة والمقيمة في الإسكندريه تدعوهم لتناول وجبة غداء وقضاء يوما كاملا معها في بيتها، والتي لديها أربعة شباب أصغرهم يكبرها بعامين متوسطي التعليم .

وفي الصباح أخـذت والـدتي وزوجـة عمـي وزينـب ببعـض التحضـيرات مـن أجل العـرس كما ذهـب أيضا عمي مـع والدي إلى بيـت العـروس مـن أجل اتفاقـات أخـيرة لحفل الزفـاف، ولما عـاد عمـي اصطحـب أسرته مـن أجـل تلبية عزيمـة الغـداء عند خالتهـم وعـاد عمـي أيضًـا بمفـرده مبكـرا حيـث سـألته أمـي عنهــن قال :

– لقـد أصرت خالتهـم بـأن يمكثـو معهـا إلى الليـل وسـيقوم بتوصيلهـن أحد الشـباب، استيقظت على حديث عمـي هذا ولم أعـرف مـن أيـن أتى هـذا الشـعور شـعور قـد جعلني أفكـر لما لم يأتـون؟ هل قـام أحـد بمضايقتهـا؟ أم قـام احدهـم بمغازلتها ؟

– ونزلـت أجلـس عـلى القهـوة التـي في أول الشـارع كـي أراهـم وهـم قادمـون وأتـت السـاعة التاسـعة مسـاءً ولم يأتـو وذهبـت عـلى اتصـال والـدي بأنـه يريـدني في البيـت ودخلـت البيـت في لوعـة لا أعـرف أجلـس أم أقـف فوجدتهـم قادمـين مـع إحـدى أبنـاء خالتهـا وفتحـت لهـم البـاب وجدتهـا تبتسـم هـي وابـن خالتهـا الـذي يكبرهـا بعامـين.

– ودخـل معهـن فكنـت كلـما أحدثـه كان يشـاركها الحديـث معنـا ولا أعـرف فشـعرت أننـي أريـد أن أصفعـه عـلى وجهـه عندمـا كان ينظـر ويحـد النظـر إليهـا وقبـل أن يغـادر اقـترح

عليهـن أن يأخذهـن في نزهـة فأحبـت مريـم الفكـرة وقامـت بالتصفيـق عاليًـا بأنهـا فكـرة رائعـة .

– ولمـا وافقـو عملـت جاهـدًا عـلى كظـم غيظـي، ودخلـت حجـرتي غالقـا الباب بشـدة مما آثـار دهشـة الجالسـين وفي اليوم التـالي أتـى أحمـد ابـن خالتهـا لكـي يصطحبهـن فـأصرت مريـم بأخـذ علياء معهـا ورفضـتُ بشـدة فنظـرت إليّ قائلـة :

– دعهـا تـأتي معنـا يـا عمـر فأنـا برفقتهـن وظللـت صامتـا متمتـما بصـوت منخفـض أجـل فلتذهـب، واقترحـوا عـليّ أن أذهـب معهـن فقالـت زوجـة عمـي:

– مـا رأيـك أن تذهـب معهـن ياعمـر فعندمـا تكونوا شـابين مـع الفتيـات يطمئـن قلبـي فنظـرت إليها مـرة أخـرى ووافقت، وكالعـادة اخـترن السـير عـلى الأقـدام، فسـارتا مريـم وعليـاء في الأمـام وأنـا وهـي وأحمـد خلفهـن فـكان كثـير الحديـث ثرثـارا لم يكـف طـوال الوقـت عـن السـؤال لهـا وهـي تجيـب عـلى قـدر السـؤال فقـط .

– ووصلنـا إلى قلعـة قايتبـاي وصعدنـا إلى أعلاهـا وهـي صاعـدة عـلى الـدرج ارتطمـت قدماهـا ولمـا أدرت وجهـي وجدتهـا تمسـك بيـده فـازداد غضبـي لدرجـة أن احمـر وجهـي وصعدنـا واقـترح أحمـد بأخـذ الصـور عـلى هاتفـه، وأنـا جالس

على السور أنظر إليهم وكأنني ذئب يخطط من أجل اصطياد فريسته فطلبت منه أن أشاهد الصور وقمت بحذفها جميعًا .

أوه لم أكن قاصدا لقد حُذفت الصور فعذرا منك الرجاء! لا عليك ولكنها كانت صورًا رائعة، ولكن لا بأس فنظرت إليّ وكأنها تعلم حقيقة مافعلته، فقام أحمد ناظرًا إليها يقص بعض القصص المضحكة من وجهة نظرهم حتى صارت تضحك وتعلو ضحكاتها، على قدوم فوج سياحي، فسألها أحد السياح عن اسمها أجابته حواء.

وسيرنا متجهين إلى الشاطيء، فوقفنا إلى أن يأتين البنات بعدما ذهبوا إلى شراء المثلجات، بصوت رجولي منزعج قلت لها:

– ماهذا ؟ فنظرت إلي ! أي ما هذا لم أفهم ؟ تقولي إذا سألكِ أحدهم اسمي حواء ؛لأنه ليس من جنسك وأنتِ طوال الوقت تضحكين وتطلين الضحك مع هذا الشاب، وأتى أحمد والبنات وسيرنا وسارت طوال النزهة عابسة فحاولت التحدث معها من أجل الاعتذار على أسلوبي السيء ولكني وجدت مشقة في ذلك إلى أن وصلنا البيت فأوقفتها على الدرج أعتذر منها ولكنها سرعان ما تركتني صامته تدق الباب دون أن تتفوه بكلمة واحدة .

- وأحضرت الطعام مع زينب للجميع وتناولت طعامها، ثم استأذنت بالدخول إلى حجرة البنات وكأنها تتعمد ذلك كي لا تقع عيني في عينها وجلست على أعصاب غير هادئة أوجه نظري نحو الغرفة وأتمنى أن تخرج كي أوضح لها سوء الفهم الذي لم أكن أعرف لماذا فعلت أو تفوهت بذلك ؟

- وظللت متأففا على أمل أن تخرج وسئمت من عدم خروجها وحل الصباح صباح يوم الحناء، فرفضت الذهاب إلى بيت العروس وفضلت أن تساعد والدتي في شئون البيت أو لأنها كي لا تصدم معي في حوار، ويوم الزفاف لم أرها إلا ليلا عندما وجدتها تقف خارج قاعة الزفاف تتحدث في الهاتف فذهبت اليها أنظر إلى جمالها المكنون.

- وأدخلتها القاعة وظللنا ننظر إلى بعضنا البعض وكأن أعيننا تريد أن تجاوب عن حديث كثير لم يتجرأ أحدنا على قوله، وعندما أتت صديقتي التي كانت معي منذ الثانويه ودخلنا الجامعه معًا حتى نفس القسم، ولا يربطنا سوى الزمالة والصداقة فقط، ولكن حينها نظرت لي نظرة اشمئزاز شعرت وكأنني فعلت شيء يخجلها .

- وانقضى الزفاف وغادروا في الصباح حيث انزعج أبي كثيرًا وبعد مرور أسبوعان من الفصل الدراسي الأول لها

ذهبتُ إليها طالبًا منها أن أحدثها على انفراد مستأذنا من أصدقائها وأخبرتها واعترفت لها بحبي الشديد حيث أخذت الأمر بجديه رافضه حتى أن أنهي حديثي وتركتني وغادرت بحجة التأخير عن الحافلة.

- وعدت إلى الإسكندرية مصحوبًا بالحمي، وانتهت السنة الدراسية الأولى وابتدأت الثانية ومر أول شهر وفاجأتها راكعًا أمامها أحمل إليها الورود فملأت عينها الدموع، فوقفت صامدا أكفف دموعها قائلا:

- أرجوكِ لا تدمعي واقبليني فأنا سوف أكون لكِ صديق وحبيب وحامٍ وماعليك إلا أن تعتلي العرش وتمضي، أعرف جيدا أنني لست قارئًا. وهي تريد أن ترتبط بشخص مقارب لفكرها المتوسع المطلع، ووعدتها بأنني سوف اقرأ. في بداية الأمر كانت خجلة في الحديث معي وفترة تلو الأخرى أصبحنا كروح واحدة إلى أن أتى يومًا وطلبت منها انتظاري في محطة القطار قائلا:

- أريد أن أراك الآن فتفوهت بنفس الكلمة مجنون وعندما تحدثني ووجدتني وراءها وألبستها خاتم من الفضة على هيئة رمز رياضي الانفنتي حتى يصبح حبنا حظه مثل هذا الرمز

الـذي يعنـي مـا لا نهايـة فكنـا أكثـر الوقـت نتبـادل الحديث عن طريـق الرسـائل النصية .

- وفي إحـدى الليـالي كنـت أهاتفهـا في سـاعة متأخـرة مـن الليل قد كشـفتنا زينـب واختطفت منهـا الهاتـف وحدثتني بعنوه وكان بإمـكاني أن أجيـب عليهـا ولكن خشـيت أن يصل الأمر إلى عمـي فتتعقـد الأمـور بيننـا، ولكنـي أغلقـت الهاتـف مسرعًا ؟.

- وبعـد مـرور طويـل مـن الوقـت أرسـلت إليهـا رسـالة نصيـه كـي تطمئنـي عليهـا وماحـدث بينهـا وبـين زينـب، ومـرت أيـام وأخـبرت أبي ووافـق أن يـأتي معـي إلى عمـي لخطبتهـا كانـت مهذبـه رقيقـة مثقفـه قارئـه كنـت دائـم القـول لهـا أنـكِ ديانـا في زمـن كثـرت فيـه العاهـرات، فسـألته : ومـا تعنـي هـذه الكلمـه ؟ فضحـك فكشـف عـن نقـص أسـنانه المتسـاقطة قائـلا:

إنهـا لم تكـن كفتيـات عمرهـا ففـي زمانهـا البنـات يركضـن وراء الشـباب فـكان لحياؤهـا يلفـت أي رجـل يتمنـى أن تصـير هـي زوجـة وأم لاولاده أتـت في وسـط زمـن يكثـر فيـه عاريات الأخـلاق .

وصـارت خطبتنـا، وحُـدد موعـد زفافنـا ولكـن أتـت إليهـا هـذه المنحـة الدراسـية التـي بسـببها جعلتنـي أكـن الكـره إلى

أوروبا وخاصة ألمانيا فهي من أخذتها مني إلى الأبد، وعشنا كأي حبيبين مرتبطين لمدة أربع سنوات ولما أتت إليها المنحة خيرتها بيني وبينها، ولما رأيتها مصرة على الذهاب وفضلت السفر عن البقاء لم أقف في طريق مستقبلها .

ألا تعلم أنها انتظرت أن تهاتفها وتمنت أن لو تحدثها لمرة بحجة معرفة أخبارها !! أعلم ولكن نحن كنا شبابًا في العشرين ونرى شخصيتنا في كرامتنا، لم أفكر وقتها أن هذه الأمور لاتستجدي أنانية عنادها، وكبريائي حطم علاقتنا تحطيما، لا أعرف إذا كان أزليا تركها وهجرها لي كان أفضل لدي من خبر زواجها، ولم أرها من يومها إلا مرتين فالمرة الأولى:

في أول أجازة لها فهبطت من ألمانيا إلى مطار الإسكندرية فبعد أن رحلت هي، توظفت في إحدى شركات الهندسة في مجالي وكانت تعمل معي إحدى الزميلات فأعجبت بأخلاقها فارتبطت بها لفتره كي أنسى إيمان وتطورت العلاقه بيني وبينها حتى ألبستها محبس الخطبة .

ولما اتصل عمي بأبي كي ينتظر إيمان بالمطار كنت أحدثه فعلمت بقدوم إيمان فأصريت كثيرا على رؤيتها وأتت إيمان مع أبي ودخلت البيت أولا ثم خطيبتي ورائي لن أنسى نظرات أعينها في هذا اليوم فلما رأتني شعرت وكأنها تريد أن

تركض نحوي وتعانقني ولكنها تمالكت أعصابها وخفضت عينها عندما لمحتها ممسكة بيدي يقدمها أبي، هذه خطيبة عمر أدركت قلبها المنفطر .

ودخلت الحجرة ولما أفاقت في الصباح وجدتني أنتظرها وحملت حقيبتها ونزلت قبلها حتى لا تصر على الذهاب إلى محطة القطار بمفردها وأوصلتها إلى محطة القطار وتحدثت وردت على أسئلتي لها بأجوبه استهزاء وتركتني فأمسكت بيدها قائلا لها:

إن كنتِ ذاهبة فاذهبي ولكن اعلمي أن قلبي سيظل عالقا بكِ للأبد وسأظل عالقا بكِ كعلكة لازقة في شعر طفلة ذات شعر كيرلي.

فعندما ينقطع النصيب يجول في خاطرنا بأننا تركناهم لذنب ما.

أما في المرة الثانية :

عندما أتت إلى مصر لتقضي أواخر أيام حياتها، ولما علمت بأمر مرضها كما علمت أنها بالقرية ذهبت إليها فوجدتها مستلقية على الفراش، ولا يوجد أحد بجوارها فنادت على أحدهم لكي يعطيها كوب الماء، ولكن لا

يوجد أحدا يستجيب، قامت منهكة غير قادرة على السير على قدمها لتذهب نحو كوب الماء انطرحت أرضًا فوقع رداء رأسها فكانت بدون شعر.

ولما رأيتها لم أمنع نفسي من البكاء فركضت نحوها لأساعدها على النهوض، ونظرتُ في أعينها التي كانت خاليه من الرموش أو حاجبٍ يزينها . ومع ذالك ظلت جميلة كالحوريات وظلت بشرتها البيضاء واحمرار جبهتها وتلك الحسنه التي ترسم في نصف خديها التي تزيدها جمالا على جمالها وكأنها كأسطورة حكايات الأطفال الكارتونيه كأميرة ديزني بياض الثلج عندما تناولت تلك التفاحة أوانها قد مشطت شعرها بتلك المشطة الذهبية المسمومه التي أسقطت شعراتها رويدا رويدا .

شعرت بأنها خجلة ولا تريديني أن أعرف ماذا حل بها وحملتها بين ذراعي ووضعتها على الفراش، وألبستها غطاء الرأس كي لا تخجل، وعندما كنت أنظر إليها كانت تحوّل نظرها إلى الجهة الأخري فهمست إليها :

لا تقلقي فأنا بجانبكِ انظري لقد تركت خطيبتي لم أتزوج بعد لأنني لا أستطيع العيش بدونك، فنزلت دمعتها وهي موجهة رأسها الجهة الأخرى، وقالت بصوت أرهقه

المـرض والألم إننـي امـرأة متزوجـة ولـدي طفلـة قفلـت لهـا بحرقـة إنهـم أعدائـي أخـذوكِ منـي، فسـعلت بتـأوه وألم دعنـي أرجــوك أريــد أن أغفــو، بصوتهــا المخنــوق المنســحب مــن داخلهــا وأغمضــت أعينهــا.

فوقفتُ أنظـر إليهـا وكأن جمـال الدنيـا في طفـل لم يبلـغ مـن عمـره شـهرا عـن نومـه الدائـم، وتلعثـم فمـه الصغـير الـذي لم يبلـغ حجـم عقلـة الأصبـع عـن هفواتـه عندمـا تشـاهده ضاحــكا فرحــا مــن لعبــه الملائكــي فهــي كذلــك.

وفجـأة سـمعت أصواتًـا بالخـارج فذهبت مـن البيـت قبل أن يــراني أحــدا، وغــادرت القريــة بأكملهــا لم أرَ ســواها في مخيلتــي حتـى الآن ولن أسـامح هذا الشـخص الـذي أخذها منـي وبكل هـدوء أعصـاب أتـى وتقـدم لخطبتها مـن أبي أتـى إلى بيتنـا بعدما هاتفتـه زوجـة عمـي وأخبرتـه بموافقـة إيـمان ولم أدرك حينهـا أن ذاك الرجـل الـذي أدخلتـه بيتـي بنفـسي هـو نفسـه الرجـل الـذي أخذهـا منـي يـا ليتنـي جلسـت معهـم أثنـاء الحديـث.

ووافـق أبي بعـد موافقتهـا بالرغـم مـن أنها كانـت مدركة أنني لم أكـن مرتبطـا مـن أجلها في هـذا الوقـت، ولما علمـت بموافقتها شـعرت وكأنهـا تذبحنـي بآلة حـادة حتى تسـتعجل قتـلي، أردت أن أقـول لهـا: كُفـي عن قتـلي أرجوكِ.

وذهبت لكي أراها يوم زفافها وطلبت من زينب أن أقابلها للمرة الأخيرة، ولكنها رفضت مقابلتي وسمعت بعد ما غادرت وقعت مغشي عليها، ولتعلمي أنني إلى الآن أرى صورتها وأتذكرها عند الأوجاع قالوا : (لن تنالو البر حتى تنفقو مما تحبون) فكانت هي الصدقة التي تصدقت بها إلى الله، وكل ما أخشاه أن تأتيني يوم البعث لاتريد التعرف والتودد إلى كانت لي ويا ليتها تعود أصبحت حياتي كمقهى ليلي مكتوب على بابه مقولة تدل على الاحتشام، أصبحت كالجحيم المقنع وهذا آخر ما لدي .

فسألته: لماذا لم تفكر يومًا إلى السفر إلى ألمانيا لمقابلاتها بدلاً من الرسائل النصية والجوابات البريدية التي لم يصلك أي رد منها ؟

وذهب وتركني عابث الوجه مفعم بالكآبة وكأنه امبراطور قد أسس قلعة الحزن خاصته، أراد أن يعيش بها بمفرده مع آلامه وأحزانه وتحسره على أنه أتى يومًا وتركها فيه .

فإن أشد عقابا قد يلقاه المرء في دنياه هو الهجران، فعندما يهجرك من أحببته كأنه يقول لك: كفى استمتاعاً بالحياة وأتى الوقت لمفارقتها بروحك لا بجسدك.

وطلبـت منـه المسـاعدة لكـي أذهـب إلى قريتهـا مـن أجـل التعـرف عـلى أخواتهـا وأحصـل عـلى بعـض المعلومـات عنهـا، اسـتقبلتني زينـب ومريـم تـارة بالترحيـب وتـارة بالدهشـة والاسـتغراب، وأخبرتهـن بأننـي أريـد أن أحصـل عـلى بعـض المعلومـات عـن حياتهـا بعـد عودتهـا مـن ألمانيـا، ومكثـت يومين في ضيافتهـن.

فبـدأت زينـب الحديـث : بعـد مـرور شـهر مـن عودتهـا إلى ألمانيـا اتخـذت قـرارا أن تقـدم عـلى وظيفـة في إحـدى الجامعـات ولم يمـر الكثـير وهـي جالسـة تتحـدث عـن انتظـار الـرد عليهـا مـن قِبـل الجامعـة .

رن هاتفهـا فقفـزت مـن مكانهـا تناولـت الهاتـف وتحدثـت مـع شـخص يُدعـى مـراد تـارة باللغـة العربيـة وتـارة بالألمانيـة يخبرهـا بأنـه موجـود في المركـز التابـع لـه قريتنـا فتلعثمـت وأخبرتنـا بأنـه مـن اسـتقبلها في برلـين وسـاعدها كثـيرًا، الطبيـب المعـروف ثـم أخـذت الإذن مـن أمـي للسـماح لهـا بالذهـاب إليـه، ولكنهـا أخـذت معهـا زوجـي خالـد وذهبـا ليحـضروه.

وبعـد عـشر دقائـق أتـت إيـمان ومعهـا شـاب وسـيم للغايـه يرتـدي ملابـس رسـمية يحمـل في يديـه باقة مـن الـورود وبعض

البنبـون، وجلـس مـع خالـد وأمـي بعـد أن قَبـلَ يديهـا حتـى نظـر إلينـا أنـا ومريـم وقـال مبتسـما : أأنـكِ زينـب والأخـرى مريـم وهـذه الصغـيرة ياسـمينا، فابتسـمنا لـه باندهـاش ثـم اسـتأذنت لاحضـار القهـوة ودخلنـا وراءهـا نتسـاءل مـن هذا؟ ومـاذا يريـد؟ فأجابتنـا بأنهـا لاتعـرف مالغـرض مـن الزيـارة ؟ فقالـت: هـل أكـون عديمـة الـذوق إذا سـألته؟

وقمــن بتجهيــز طعــام بأمــر مــن أمــي ووضعنــا الطعــام وجلـس يتنـاول الطعـام معنـا عـلى الأرض مثلنـا، فـأكل مـن طعامنـا وشرب مـن مشربنـا وكأنـه ليـس غريبـا عنـا، وشـعرنا وكأنـه فـردا مـن أفـراد أسرتنـا، ولكـن ظلـت إيـمان ناظـرة إليـه في تسـاؤل عـن سـبب مجيئـه .

فنظـر في عينيهـا وكأنـه أدرك ما تعنيـه نظرات إيـمان إليه فقال:

إننـي آتي شـهرًا واحدًا في كل سـنة أقيـم فيه عمليـات جراحية للمصريـن بالمجـان، حيـث فرحـت بـه أمـي كثـيرا وتمنـت مـن صميـم قلبهـا أن يكـون مـن قـدر إيـمان وحظهـا وبقـي حتـى المبيـت وقبـل أن يغـادر في الصباح فاتـح أمي وخالـد في موضوع الـزواج مـن إيـمان، ففرحنـا كثـيرا ولكنهـا عندمـا سـمعت الخبر قامـت مسرعـة وغادرتنـا إلى أعـلى.

فصعـدت وراءهـا إلى سـطح المنـزل وجدتهـا جالسـة وفي نظراتهـا الحـيرة الشـديدة، وعاتبتهـا عـن موقفهـا ذاك الخـالي من الـذوق أن تـترك الرجـل يتحـدث وتذهبـين راكضة هكـذا بدون اسـتئذان وجلسـت بجانبهـا أحدثهـا عـن رأيهـا مـن رفـض أو قبـول، فوجدتهـا شـاردة، وكأنهـا تتذكـر موقـف لهـا مـع مـراد:

- ههههــه أرى أنـكِ تمكنـت مـن الرقـص جيـدا ! أجـل فهــذا تعليمكــم .

- هل يمكن لك أن تجاوبني عن سؤال؟

- بالطبع .

- متـى تشـعر أنـكِ وقعـت في حـب أحدهـم ؟ وماهـو تـوأم الـروح الـذي نقـرأ عنـه في الكتـب ؟

- ولتعلمـي عنـد امتـلاككِ تـوأم الـروح فحينهـا قـد تكونين وقعـت في الحب .

فتوأم الروح أنه....أنه....

مثل الصديق المقرب ولكن أكثر .....

مثلـما تفعـل أنـت الآن؟ لمَ تحكـم قبضـة يـدك عـلى جسـدي وكأنـك تنبهنـي لـشيء .

هو شخص واحد في العالم أجمع يعرفكِ أكثر من أي شخص آخر، شخص يبقي معكِ للأبد، شخص واحد من يتقبلكِ بكل حالاتك ويثق بكِ قبل أي شخص آخر ومها يحدث سيبقي دائما بجابنبك حتى ولو تركك العالم أجمع..

ولما انتبهت لي بكت وارتمت على ساقي، ثم أخبرتها عن قراري بأنني موافقة فأنا أراه شخصًا مناسبًا لها، فإنه طبيب ووقور ويعلم التقاليد جيدًا لا يتخطاها، أما فارق السن ليس شرطًا فالنبي- صلى الله عليه وسلم- تزوج من عائشه – رضي الله عنها – وهو يكبرها بكثير، كما أن فارق السن بين والدي وأمي كثيرا والفرق بيني وبين زوجي كثير أيضا .

وكنت أرى أنها فرصة جيدة لها، فأتمت على حديثي قائلة:

- إنه حقا يناسبني فهو هادئ الطباع متريث غير متعصب للأمور يغلب عليه انفتاح المجتمع الأوروبي ممزوج بعاداتنا الإسلامية والعربية، وهذا هو الفارق بينه وبين عمر الذي كان دائم التسلط على شخصيته الشرقية المترهلة بالجبروت والسلطه المباحة للرجل في امتلاكه للمرأة.

ونزلنا بعدما مسحت دموعها لتعتذر من هذا الموقف السخيف منها وجدناه قد رحل، فقال خالد:

أراه شـابًا وقـورًا وذا خلـق وأرى أنــه مناسـبًا لــكِ حتــى مريـم أعجبـت بوسـامته التي طـل بها علينـا كإطلالـة النجـوم الفنيــة وأخــذت مريــم في وصفــة تقــول :

إذا لم يعجبـكِ فسـأتزوجه أنا فإنه وسـيم وذا أعـين رمادية تميل إلى الزرقـة، كـما أن لـه حـس الدعابة، وتمشـينا سـويا كـما عاملني بلطـف مـن رجل لسـيدة، مـع أن الحديـث كان جله عنـكِ أنتِ.

فنعتتهـا أمــي وضحكنـا جميعًـا، وبعـد سـاعة مـن الوقـت سـمعنا نغمــة رنــين هاتفهـا يبـث ضـوء رسـالة يخبرهـا عــن الشــكر، شــكرا لاســتقبال أسرتــك لي فأنــا أحببتهــم كثــيرا ولتعلمـي أننـي أنتظـرك ولـن أمـل. وذهبـت لأننـي أعـرف أن أسرتـك بالكامـل تريـدني زوجـا لـك وأنا أتمنـى ذلـك، ولكن لم أعـرف ردك وأنـا في طريقـي الآن إلى عنوان عمك بالإسـكندرية؛ لكــي أطلبــك منــه وأريــد أن أعــرف جوابــك ليــس الآن، ولكــن بعــد تفكــير حريــص أخبرينــي بموافقتــك أرجــوكِ.

وبالتـالي حـدث عمـي، واتصـل بنـا لكـي يخبرنـا بـما حـدث وأخبرتــه أمــي بأننــا موافقــون، ثــم طلــب عمــي أن يحــدث إيــمان ويســمع موافقتهــا بأذنيــه فأخبرتــه بموافقتهــا .

ومـر يومـان وإذا مـراد يهاتفهـا يريـد أن يسـمع ردهـا بـدون ضغــوط فارتبكــت قليــلاً، ومــن خجلهــا أرادت أن تغــير

الموضوع بحديث آخر قائلة: لقد نسيت معي طوقك سلسال يس فأجابها: إني أريد أن أسمع ردك ؟

أجل موافقه، أقبل بك ومتى ترغب في القدوم ستكون أسرتي بانتظارك .

وأتى يوم عقد القران فأتي مراد مع والدته التي كانت تريد أن ترى إيمان، ورأتها وأعجبت بأخلاقها وجمالها، ولكننا شعرنا بأنها لم تعجب بحال أسرتنا، وعندما رآها مراد تنظر إلى حوائط البيت مع تعابير وجهها الغير راضية همس إليها مراد :

أرجوك يا أمي لا تنظري هكذا فأنا الآن أصبحت واحدًا منهم، وفجأة أدارت وجهها لإيمان قائلة : عزيزتي إنني أراك في عين مراد فلتراعيه جيدا .

– إيمان : لم يسبق لي أن رأيتك تمكثين مع مراد في ألمانيا لم ؟

– لا لم أذهب إلى ألمانيا، كنا نذهب أنا ووالد مراد لزيارته، ثم نعود سريعا إلى مصر بسبب عمل والد مراد، وقبل أن يتقاعد عن العمل بستة أشهر توفي فأنتم تعلمون كان يعمل بالسفارة المصرية ثم قال مراد:

- أتسمحون لي ثم أخرج من جيب بذته خاتمًا من اللؤلؤ مطلي بالذهب، فاندهشنا جميعا فهمست له إيمان: لم كل هذه التكلفة فيبدو أنه غالي جدا، فابتسم لها قائلا:

- ليس هذا من قيمتكِ، وحل المساء وكتب المأذون كتابهما وقبلها من جبينها وعملوا سويا على ترتيب شقة لهم في مصر يأتون إليها في الأجازات متفقين على فور وصولهم إلى ألمانيا أن يختارو سويا بعض ديكورات بيتهما في برلين.

وفي خلال شهر أقاموا حفل زفاف صغير لم يحضر فيه سوى الأسرتان وبعض الأصدقاء، وأثناء تجهيز العروس شعرت بدوران حتى أغشي عليها لمدة ثلاث دقائق وأفاقت ووجدتنا أمامها .

وفي هذه الأثناء أتى عمر وأراد أن يراها فأخبرته بأنه لا يمكنه أن يراها وأصر إصرارا شديدا، ومثلت عليه بأنني ذهبت إليها وخرجت أخبره بأنها رفضت مقابلته ؛ لأنني أعلم أنه أذى قلبها من قبل وهي الآن ترتدي ثياب العرس لرجل آخر وقف بجانبها في حزنها قبل فرحها، لم يحاول قط أن يقلل من شأنها، كما أنه يحبها أكثر منه وكان هذا من أجل مصلحتها .

وخرجت كأجمل عروس بفستانها الأبيض حيث لم أنسَ نظرات مراد إليها في تلك الليلة وكأنها يقول لها : كم تمنيت ان اراكِ بهذا الثياب لي ياملاكي.

فذهبت أقف بجانبه أبارك له وأوصيه عليها رد ناظر إليها : فإنها كزهرة بيضاء نبتت وسط الخضرة تلامس خديها الفراشات.

وتقدم نحوها ممسكا بيديها، إلى قاعة الزفاف، وانتهي الزفاف بفرحة العروسين ببعضهما، ومرت السنوات وتليها الشهور والأسابيع ثم الأيام نحدثها ولانعرف ماذا حل بها؟ إلى أن أتت بمرض خبيث دمرها، ثم قضى عليها ومن فترة قصيرة أتى مراد بابتيها لدفنها بجوار أمها، فإن الفراق لايسعه موسوعة من الحزن .

وقررت أن أسافر إلى برلين قبل انتهاء مدتي المحددة في جواز السفر وحجزت أول طائرة إلى برلين وغادرت وأنا لا أتحمل الجلوس أو النهوض إلا أن أقابل د. مراد وما أنا إلا طوال الوقت أقضم أظافري بفمي أريد أن أراه أريد أن ألتقي به .

فهاتفت السيدة لارا وعلمت منها أنه سيتواجد في برلين خلال أيام فأخبرتها بأنني لي رجاءً لديها أن تخبرني فور قدومه،

وفي تلـك الفـترة ذهبـت بالتسـجيل لترجمـة مـا قالـه عمـر في التسـجيل لـه باللغـة الألمانيـه حرفيـا .

وبعـد مـرور أسـبوع هاتفتنـي السـيدة زوج السـيد إليـاس تخـبرني بقدومـه، ولكنـه أتـى ولا يـود أن يـرى أحـدا، وأخبرتهـا بأننـي أود لقائـه عـلى الفـور كـما أخبرتهـا أننـي ذهبـت إلى مـصر وقابلـت السـيد عمـر وأخبرتني السـيدة أنـه ذهب مـع إلياس إلى مـكان يحبـه كثـيرا أي وهو المينـاء مينـاء برلين ووجدتهما جالسـين في مقعـد عـام أمـام الميناء مبـاشرة وسـمعت حديثهـما عندما قال لـه السـيد إلياس :

إنـه مكان رائـع حقا لقـد اصطحبتنا غـير مرة إلى هنـا لكني لا أسـأم منه فـرد مراد:

- لا أعـرف لمـاذا المـكان حزين هـذه المره كان جميـلاً فيما مضى حينهـا لم أرَ أجمـل مـن صفـاء المـاء التـي من جمـال الطبيعـة حيث كنـت داخـل النفـس فدخلـت الـروح دون إذن اسـتأذن ولكنني رأيـت فيـما بعـد من هـي أجمـل منها .

- ماخطبك لم يبدو لي أنك مسروراً ؟

- توهـم لي أن البعـد عـن هـذا المـكان سـيمنحني الهـدوء والسـكينه، لكـن يبـدو أن الفـراق والهجـران أصعـب بكثـير من عـذاب القـرب والمجـاورة.

- ستنساها شيئًا فشيئًا .

- فمـرور الوقـت لايزيدهـا إلا حضـورا في خيـالي أخشـى أن أصــاب بالجنون.

- انظـرإلى عينيـك يامـراد فإنهـما يرمقـان نظـرات بهـا النـدم والحـسرة.

- لقـد التمسـت منهـا حيـاتي . فـإن ألم العشـق يذيـب العقـل ويذهـب الغـم، فعشـقها مـازال داخـل قلبـي، ولكنـي غفـوت للحظـات عنهـا بمجـرد أن أفكـر أن أتخلص مـن ذكرياتهـا هاربا مـن بلـد إلى آخـر من امـرأة إلى أخـرى أن أحـاول نسـيانها ببعض العمليـات الجراحيـة الصعبـة، فأنـا مـن وجهـة نظر النـاس أزيل التعـب عـن قلوبهـم المتعبـه، ولم أجد من يزيـل هم قلبـي المتعب، أهـرب إلى الموسـيقي، أبتكـر بعض النغـمات الموسـيقيه في مخيلتي تذهبنـي بعيـدا، ولكننـي في آخرهـا أجـد قدمـي تجـرني إليها .

- إنــك حقــا لم تغفــل عنهــا وإن غفلــت فليــس تقصــيرًا منــك.

- لمَ تســخر مــن كلامــي، لمَ لم تــرضي قلبــك وتهــدأ مــن روحــك المتألمــه فأعطهــم حــق الراحــة .

– فسعلت وتقدمت نحوهما أعرفه بنفسي، ولما أخبرته بسبب قدومي أراد التهرب ولم يتوقف عن السير إلا عندما أخبرته أنني علمت كل شيء من عمر فنظر إليَّ باندهاش!!

– ماذا عمر من؟!

– عمر ابن عم السيدة إيمان زوجتك الراحله، فتقدم نحوي باختناق يده على رابطة عنقه ماذا تريدين ؟

– أخبرته إنني اريد معرفة كل شي عنها .فأجابني لما وماذا تريد أن تعرفي ؟ أجبته أريد أن أحتسي القهوة أولاً، وجلسنا وعندما قلت له: دكتور مراد قاطعني الحديث ساخرا لا تدعيني بطبيب أو ناقد، بل ادعيني بائع السعادة الباكي.

– وقد نسي أن يطرح السؤال مرة أخرى، لماذا أريد أن أعرف؟

– وفتحت التسجيل، وأخد يتحدث :

إيمان أجمل امرأة رأيتها كانت كحي قديم عريق ذا تراث ديني نادر في دولة أو وقر مليئان بالشذوذ، أحببتها كثيرًا، كنت أكبرها كانت عشرينية وكنت في منتصف عمرالثلاثين، كانت أعظم امرأة في محياي، فكانت عينها

السـوداء تجعلـكِ تتوهـين، وكأن سـماء الليـل صغـر حجمهـا وضعـت لترسـم عينهـا ذات شـامة صغـيرة في أوسـط خدهـا بعـض النمـش المتناثـر عـلى أنفهـا، وكأنهـا رمـال مـن بحـار الجنـه سـقطت عـلى أنفهـا الصغـير مثـل أمـيرات الأسـاطير، كان شـعرها الأسـود الطويـل يشـبه لسـاحرة جنوبيـة مجنونـة ألقـت عليـه سـحرها، فقـد كان طولـه يسـتر عورتهـا ليسـت بطويلـة ولا قصـيرة، كانـت بطـولٍ يجعـل قوامهـا بمنتصـف قلبـي، فكنـت مـدركًا سـجيَتها التـي لم تتغـير فهـي اجتماعيـة منعزلـة، ثـم تهـرب مـن الجميـع باحثـة عـن نفسـها.

كانـت متدينـة جـدا أتـت إلى ألمانيـا في منحـة دراسـية مثلهـا مثـل باقـي النـاس تعايشـت وتأقلمـت مـع حيـاة غـير حياتهـا، كانـت عنيـدة مسـتقلة تحملـت خـبر مرضهـا في نفـس العـام الـذي تُـوفي فيـه والدهـا كـما كـسر قلبهـا مـن قبـل ابـن عمهـا، فهـي امـرأة عانـت ولم تـرَ القليـل في حياتهـا.

أتتنـي كفرسـة مـن سـلالة الخيـل العـربي الأصيـل هـي جامحـة كانـت شـاردة فاقـدة للطريـق إلى أن أتيـت إليهـا مقتربـا منهـا كـي تشـم رائحـة قميـصي، ومـن ثـم تـأتي إليَّ تبحـث معـي عـلى قطعـة السـكر حتـى أصبحنـا في روح واحـدة، أصابتهـا لعنـة دجـال شـمالي، نتمشـى سـويًا، نعـبر حـدودًا

نخترق قوانينا إلى أن نصل إلى عالمنا الخاص حتى تغار من حمار مارتسألني إن كان فاقدا للطريق هو الآخر، وتتركني راكضة نحو شاطئ البحر إلى أن آتي إليها فلم ترضخ إلّا أن أقدم لها نفس قطعة السكر.

تعياشنا قصة حب خالية من قهر الزمان وتعنت الآباء وكبرياء أحد الأطراف، ليست كالذي عانى من أجل فتاة ذات حسب ونسب بنت الأغنياء التي رفضتني من أجل فقري أو عجزي المادي، وليست كقصة حب نشأت بين شاب وفتاة من ديانتين مختلفتين ووقف لنا أباطرة الكنيسة، لسنا كالذين أحبو بعضهم وظلو مختبئين متخفين عن أعين الناس من عشيرتهم، ليست كقصة حب لفتاة عمياء أعطاها الشاب فؤاده ثم عينيه ليعيشا سويًا ثم بعد ذلك تتركه بحزنه ودموعه المتبقية من روحه.

لقد رأيتها لأول مرة من وراء تلك الستائر الرماديه وفجأة ظهرت كأميرة الدخان، فكانت واقفة أمام النافذه تلوح لنا بيديها الصغيرة البيضاء وكأنها خائفة من ضوء الشمس تلامس بشرتها، طلت علينا بوجه شاحب قد أرهقه التعب حين ذهبت لأول مرة إلى ايرلنغن مع إلياس لرؤية لارا، ولكنني لم أتمكن من رؤيتها فظهرت من وراء الستائر كالأميرة المتخفية .

ومـن حديـث لارا وصديقتهـا عنهـا أردت أن لـو أنهـا أتـت معهـن، كنـت أود أن أتعـرف عـن تلـك الفتـاة الصاخبـة، كنـت أناديهـا ياسـندريلا كانـت دائـما تختفـي وتظهـر فجـأة، وتهـرب فجـأة .

تخيلـت وأنـا ناظـر إلى العشـبة الخـضراء أننـي داخـل حفلـة تنكريـة الـكل يسـتر وجـه بقنـاع يوجـد بالحفـل الكثـير مـن الفتيـات المقنعـات تتراقصـن وتتمايلـن عـلى أنغـام مقطوعـة أوبـرا إيطاليـة نعيـم الحـب ل بافـاروتي، ولكـن تلـك ذات الـرداء الحمـصي ذات القنـاع المذهـب صاحبـة تلـك الجديلـة السـوداء ضيفـة الـشرف التـي عندمـا خطـت قدماهـا توقفـت الموسـيقي وصمـت الجميـع كـي يسـمع صـوت تمايـل كعـب حذائهـا، نشـم رائحـة عطرهـا المتناثـر عندمـا مـرت علينـا كمـرور سـيدة نبيلـة في عهـد القيـاصرة أخـذت ألثـم عطرهـا وأتبـع خطاهـا وأنظـر إليهـا مـن بعيـد وأنا أقـف أنظـر إلى هؤلاء الرجـال المقنعـين الذيـن يتمنـون أن ينالـو حظًـا عـلى موافقتهـا لمرافقتهـا لهـم الرقصـة، فذهبـت إليهـا دون التفـوه وأمسـكت سـاعدها الأيـسر ورقصـت معهـا تلـك الرقصـة الدائريـة.

أمـا المـرة الثانيـه لمـا أتـت لارا إلى برلـين لحفـل خطبتهـا عـلى إليـاس واسـتقبلتهم في بيتـي رأيتهـا يـوم عيـد ميـلادي حينـما

دخلت علينا بحذائها الدبدوبي تستأذن منا بالدخول، فجمال تلك الفاتنة كاد يهلكني، شعرت وكأنها كلما ابتسمت تبعثرت جميع الحروف والكلمات عند النظر إلى عينيها أو فمها الغض المنمق .

زادت في عيني عندما تفوهت تسبق لارا في الحديث تقول لي معرفة نفسها لي بحواء كي لا تفصح لارا عن اسمها فتزداد خجلاً فلم تجلس إلا القليل وأرادت أن تصعد إلى غرفتها، شعرت وكأنها وسط أناس لم تعرفهم ففضلت البقاء بمفردها بحجة إنهاء الكتاب الذي تقرأه فاستأذنت منهم من أجل إحضار فنجان قهوة لي ؛ كي يهدأ صداع رأسي فأخجلتها لارا قائلة : ما رأيك يا إيمان في مساعدة مراد وإحضار بعض القهوة فاحمرت وجنتيها، دون التلفظ ذهبت معي وتتبعنا المطبخ ثم قالت:

- ما رأيكم أن تنتظرني خارجا وسأقوم أنا بصنع القهوة !

- من الأولى أن أساعدك فإنك لا تعرفين أماكن الأشياء فأنتِ تصنعين القهوة وأنا أساعدك في إعداد الأقداح، فكنت أراقبها وهي تتفحص القهوة عند غليانها بعدما أدارت آلة صنع القهوة، كانت واثقة الخطوات رشيقة، وصبت القهوة التي يفوح منها أريج طيب في الأقداح .

ولم تنظــر إليَّ، ولكنهــا أعطتنــي إحساسًــا غريبــا يجعلنــي مقتنعًــا بأنهــا محيطــه بــكل نظــراتي التــي تتبــع كل حركــه مــن حركاتهــا .

وبصوت مبحوحا قليلا سألتني :

- هل تريد إلى قهوتك كريمة وسكر ؟

ســكر ولا شيء آخــر، ثــم وضعــت في قدحهــا ملعقــة كبــيرة مــن الســكر.

وحملــت الأقــداح وبهــا إلى غرفــة الجلــوس، وبعدهــا بدقائــق اســتأذنت مــن أجــل الخلــود إلى النــوم.

وفي الصبــاح الباكــر ارتديــت ملابــسي الرياضيــه وذهبــت إلى رياضــة التجديــف حيــث هــي قامــت برياضــة الركــض في حديقــة البيــت، ولمــا عــدت رأيتهــا تركــض وفجــأة وقفــت ناحيــة حــوض أزهــار الأوركيــدا وتمايلــت تشــمها وتلامســها بيدهــا الناعمــة البيضــاء تتحــدث وتضحــك مــع العــم يــس فتقدمــت نحوهمــا وألقيــت عليهــما تحيــة الصبــاح وقلــت لهــا أرى أن زهــوري أعجبتــكِ فضحكــت بفمهــا الصغــير، وقالــت :

لقــد أحببتهــا كثــيرا واســتأذنت منــي أن أســمح لهــا بالدخــول، وصعــدت إلى غرفتهــا ولم أرهــا مــن بعدهــا إلا عندما

حلّ الصباح وتواجدنا كلنا أسفل لكي نستعد للذهاب إلى الكنيسة لإتمام نصف الإكليل وفجأءة قالت لارا:

يجب على أحدكم أن ينتظر إيمان فإنها أعلى، وبينما تتحدث نزلت علينا بفستانٍ من الستان أسود كاحل بحجاب يغطي رأسها الذي زادها جمالا ورونقا واختلافا عن الباقين، ولما وجدتنا جميعًا ننظر إليها في حالة من الانبهار نزلت مرتبكة تمسك ثيابها بيدها خوفا من السقوط، فكلما نزلت خطوة تتمايل بكعب حذائها العالي كأنها تتمشي بدلالٍ في مقطوعة بيت موسيقي كموسيقي روسيني .

تمنيت أن تركب بجواري في السيارة، ولكن قد سبقها كل من نبيل أخو لارا وصديقتها، ثم هي وجلست في المقعد الخلفي معهن أنظر إليها في المرآة إلى أن وصلنا إلى الكنيسة ففتح نبيل الباب مسرعا نحو باب الكنيسة، ثم صديقتها بعدما نظرن إلى في تمعن شديد ويتهامسون عن أناقتي ووسامتي، ثم ذهبتا إلى الداخل وتركاها فشعرت بأنها مترددة في الدخول فنزلت وسارت على غير استعجال فتقدمت نحوها أريد أن أعرف مابها فقلت لها: مارأيكِ أن نتحدث باللغة العربية قليلا ؟

هل من شئ يقلقكِ ؟ أجل، إني قلقة جدا لأنني لا أعرف ما حكم الدين في دخولي الكنيسة ؟ إني أشعر

بانقبــاض شــديد داخــلي ولا أعلــم مــاذا حــل بســاقي أشــعر وكأنهــا ثقيلــة بعــض الــشيء، كــما أوجــس في نفــسي خِيفــة لا أعلــم مــا ســببها، وحدثتني باللغــة العربيــة أن ســاقي لم ترغب في الســير أكثــر مــن ذلــك ففرحــت كثــيرا بحديثهــا معــي بالعربيــة، مــن يومهــا أخذنــا وعــدا بــأن كل حديــث ســوف يــدور بيننــا ســيكون باللغــة العربيــة فقلــت لهــا:

- إن ســاقك جيــدة ولكنــه الادرينالــين هرمــون الخــوف والرهبــة.

وقلــت لهــا: لاتحــزني ثــم أخرجــت مــن جيبــي سلســال بــه أول خمــس آيــات مــن ســورة يــس فاندهشــت مــن إخــراج السلســال مــن جيبــي فطمأنتهــا أن هــذا السلســال دائــما معــي أينــما ذهبــت وأينــما عــدت حتــى دخــولي إلى غــرف العمليــات فإنــه يهــدأ مــن روعــي فلــكِ أن ترتديــه، وبعــد ضغــط منــي لهــا كــي تأخــذه قبلتــه في صَرة، ثــم صكــت وجههــا وســاعدتها في ارتدائــه وشــعرت وكأنهــا شــاردة تتذكــر شــيئا قــد حــدث معهــا بنفــس تلــك اللحظــه بنفــس ذاك الموقــف ..

ودخلنا الكنيســة حيث مراســم خطبة لارا وإلياس وجلســت وراءهــا اختطــف النظــرات إليهــا وهــي واضعــة يديهــا عــلى عنقهــا عــلى السلســال المختبــيء داخــل ثيابهــا، وتمــت مراســم

الخطبه في منتصف النهار ولما وجدت البعض هم بالرحيل كانت هي أول من خرجت من المعازيم المقربين، وعندما خرجت وجدتها واقفة مع أستاذها تشرح له، لماذا خرجت من الكنيسة مبكرًا، فتركها كي يبارك للارا على خطبتها.

فوقفت شامخة تلفت الأنظار إليها فتقدم إليها أحدهم يسألها عن اسمها فأجابته حواء، فتبسمت مندهشا من أفعال هذة الفتاة، وتقدمت نحوها أخشى أن يلوذ بها أحد وأنا واقفا كخيال الظل هكذا.

وركبنا السيارات واتجهنا نحو قاعة الحفل وانشغلت مع إلياس لدقائق، ولما بحثت عنها بعيني على مقعدها لم أجدها وأخذت أبحث وأفتش عنها كالمجنون فلمحتها عيني في آخر القاعة تذهب إلى الخارج فجلست على مقعدي، ولكن كان عنقي يؤلمني من النظر إلى الوراء عليها، وشعرت بعدم ارتياح واتجهت ناحية الباب أفك رابطة عنقي كل ما يدور في رأسي، ماذا حل بها فوجدتها تجلس على أريكة خشبية تحت ضوء القمر ورأيت ملامحها مرسومة عليه وتمد يديها نحوي وتقول هيا اقترب مني يا أنا ولتقبلني قُبلة أبدية حتى أكتب لك ولما رأتني أقف خارجا أتأفف وأحل عقدة رابطة العنق أتت نحوي

تقـول : أبـك شـيئا فأجبتهـا بارتبـاك : لا لم يحـدث معـي شيء، مـاذا عنـك لم تركـتِ الحفـل وجلسـتِ في الخـارج بمفـردكِ ؟ فأجابتنـي : إننـي لا أحـب الأصـوات الصاخبـة، كـما أردت أن أنفـرد مـع القمـر كالعـادة فأنـا أحـب البـدر يـوم تمامـه فأجلس وأتسـامر معـه إلى أن تـأتي الشـمس وتأمـره بالرحيـل، كانـت تجعـل مـن كل شيء حولهـا بسيط، فكانـت كلـما أطالـت النظـر إلى القمـر تتأمـل الكـون أنظـر إليهـا وكأنهـا عالمـي الخـاص.

أراهـا بنـت هادئـة كبيـت صيفـي دافـئ في فصـل الشـتاء أشـعر أننـي أريـد سـكناه أن أكـون بـين أحضانهـا كطفلهـا المدلـل، كبيـت شـعري جاهـلي قالـه صاحبـه لحظـة اصطيـاده لحيـوان بـري، وفجـأة رآهـا تصرخ مترحمـة عـلى الغزالـه المصابة تـصرخ بوجـه بـرئ لما فعلـت هكـذا وتتركـه حائـرا يبرطـم فمه بالغـزل فيهـا، دون أن يشـعر يبحـث عنهـا داخـل قلبـه الجـاف .

ثـم أعطتنـي السلسـال وشـكرتني، وقالـت طابـت ليلتـك وذهبـت حيـث أتـت إلى الأريكـة فأوقفتهـا قائـلا :

- لا داعـي للشـكر وإذا سـمحتِ لي أن أرافقـك فتبسـمت وقالــت :

- حسـنا فقامـت بخلـع حذائهـا وحملتـه في يدها، إنـه يتعبني كثـيرا فأنـا لا أرتديـه إلا في المناسـبات الليليـة، فإنهـا جميلـة في

كل حالاتها أحببتها كحب جميع العازفون لسُليمه، كعنصر كيميائي منفرد.

وجلسنا سويا ننظر إلى النجوم والقمر حتى طرحت عليها سؤالاً عما ترى ألمانيا من منظورها ردت مجيبة :

- أعجبتني، أما مصر فأفتقدها كثيرًا وإنه مهما أتاحت لي ألمانيا جميع فرص المستقبل فستظل تحت مسمى الغربه فأنا من مغتربات ايرلنغن .

ولكن ياحبذا نسم من جوها عبق يسري على جدول الماء دفاقِ ،بل حبذا روحة تدعو الهديل بها عند الصباح تماري بأطواقٍ ،مرعى جيادي ومأوي جيرتي وحِمي قومي ومنبت آدابي وأعراقي أصبو إليها على بعد، ويعجبني أني أعيش بها في ثوب إملاق، وكيف أنسى ديارا قد تركت بها أهلا كراما لهم ودي واشفاقي إذا تذكرت أيامهم سلفت تحدرت بغروب الدمع أماقي، فقاطعتها مكملا :

- فيا بريد الصبا بلغ ذوي رحمي أني مقيم على عهدي وميثاقي وإن مررت على المقياس فأهدِ له مني تحية نفس ذات أعلاق وأنت يا طائر تبكي على فنن نفسي فداؤك من ساق على ساق أذكرتني ما مضى والشمل مجتمع بمصر ذا لحرب لم تنهض على ساقِ .

– ثم نظرت إليها مبتسما أتحبين الكاتب سامي البارودي! أنا أيضا أحبه وخاصة قصيدة الاشتياق في المنفى، وكتاباته من أروع الكتابات الشعرية على الإطلاق، فقالت :

– لم أتوقع أنك تقرأ في الأدب وأرى أن الأطباء لم يكن لديهم الوقت لقراءة هذا النوع من الأدب ؟ أنا جراح قلب وأدرس الموسيقى وأقرأ لابن الفارض وبعض كتب الأدب ولكِ زيارة إلى مكتبتي فور وصولنا إلى البيت، وشعرت بأنها تشعر بالبرد فخلعت معطفي والبستها إياه وظللنا لبرهة صامتين إلى أن شعرت بالخجل، وقالت : دعنا ندخل إلى الحفل أخشى ألا تراني لارا فتغضب، وأنا جالس أنظر إليها متمتمًا في نفسي: فالنظر إليكِ يعطيني طمأنينة فما بال لو عانقتك.

أحيانًا يعجز اللسان عن النطق فتفضح العين ما يستتر وراء القلب الصامت واللسان المتفوه .

ودخلت القاعة فهمست لها لارا كي تصعد إليها لكي تهديها ورود العروس لكي تلحقها في أمر الزواج وأخذتها بخجل ووقفت وراءها حاملة الورود .

وكأنها تعيش في جزيرة خضراء بمفردها تلك ذات الأجنحة البيضاء مثل ملاك وضعت عينها على بشري وأرادت أن تُريهِ عالمها الخفي الكبير من وراء ابتسامة

فمها الصغير من نور صف اللؤلؤ الذي كان يظهر كلما ضحكت .

وانقضت الخطبة وذهبنا إلى البيت وصعدت إلى غرفتها وأبدلت ثيابها الأنيقة تلك، ونزلت إلى أسفل حيث تلبي دعوتي لها إلى المكتبه، ولما دخلت شعرت بالانبهار الشديد الذي تبيَّن من أعينها وقالت هذه لك ؟ وتمنيت لها أنها تمتلك مثلها في إحدى الأيام وأخذت تنظر إلى الكتب وهي تتثاوب فأمرتها بالصعود إلى النوم ولها أن تزور مكتبتي في الصباح .

وفي الصباح الباكرارتدت لباسًا للرياضة وذهبت لكي تركض ولما فتحت الباب كنت أقفز الحبل في حديقة المنزل فألقيت على تحية الصباح، وخرجت تركض بجوار البيت فطلبت أن أرافقها وركضنا لمسافات طويلة وكنت أشير لها على المعالم الأثرية التي كنا نمر عليها في الطريق إلى أن وصلنا إلى ميناء برلين، واتجهت نحوها ووقفت تراقب الطيور وتتناغم مع أصواتها الجميلة، وتحدثت وهي تنظر إليها قائلةً : لقد رأيت هذا الميناء من قبل في رؤياي الأولى عندما طلب مني أبي بأن أصلي كي أستخير الله مابين السفر والبقاء، ورأيت نفسي أمشي من أمامها وأحمل بيدي حزمة

من الورق أتصفحها وفجأة أتت ريح هوجاء أسقطت مني الورق وأخذ يتطاير يمينا وشمالا، وكانت هذه الأوراق للحصول على الشهادة وأخذت ألملمها، فنزلت في زورق صغير كان مرسي في الميناء كي آتي ببعض الأوراق المتطايرة في الماء، وفجأة انقطع حبل الزورق ولم أدرك أنه مخروق فأغرقني وأغرق الأوراق، وضعت وضاعت الأوراق وهي رؤياي الكاملة التي اقتصيت على أهلي منتصفها لأنني كنت أريد المجيء أكثر من أي شيء .

وجلسنا في الطريق العام إلى أن مر علينا بائع الخبز وابتعت لها خبزًا محشي بمربى التوت وتناولناها سويا، فقالت :

– هيا نذهب كي لا تتأخر على عملك فأخرجت الهاتف من جيبي وهاتفت سكرتيرتي وألغيت كل مواعيد العمل خاصتي فتبسمت، وبعدها سألتني سؤالاً، علمت منة قصة السلسال، لأنها كانت مندهشة عندما أخرجته من جيبي يوم الحفل بهذه السهوله وأخبرتها أنه دائمًا في جيبي ؛ لأنه مصدر إلهامي وقوتي.

– وأن هذا السلسال منقوش عليه أول خمس آيات من سورة يس، وأنه كان في عنق أختي أعطتني إياه يوم تخرجي من جامعة الطب، وبعدما علمت أنني تخصصت في جراحة

القلب وقدمته لي قائلة : إنها يس قلب القرأن ستحفظك أينما كنت وأينما تكون خائفا، ولما سألتني عنها وعرفت أنها في الجنة ارتبكت في الحديث وقامت تعتذر وصممت على أن أعرف عن حياتها أكثر وعلمت منها أن تركها ابن عمها مقابل المنحة ووضعها في موقف الاختيار قائلة :

- لا يجب على الفتيات أن يصدقن رجل قال إنني لن أتركك مهما عصفت ضدي الريح .

- لِمَ تفكرين أن الرجال جميعهم بنفس الفكر والفكره ؟

- ما رأيته منهم جعلني أفكر بهم هكذا.

- لا يجدر لكِ هذا التفكير فمن الواضح أنكِ من أجل رجل واحد حكمتِ على جميع الرجال .

- لا أود الحديث في هذا الموضوع .

واحترمت رغبتها، وذهبنا إلى البيت وفي المساء لعبنا لعبة الصراحة والتمني، ولما حان الدور عليها تمنت أن تحضر حفل في الأوبرا للوبتشيلي، أردت أن أسعدها ولا أعرف لماذا، إنها فتاة عشرينية وأن كل ماتطلبه أساليب مراهقة بالنسبه لعمري الذي يقرب من الأربعين.

وشعرت كأن نفسي أرغمت بفعل حكمة أحد المتصوفين التي تقول، دع روحك تجذبك بصمتٍ إلى ماتحبه ..حقا إنها لن تضلك!!

وجهزت الغرفة وجعلت شاشة العرض الكبيرة بعدما أوصلتها بإسطوانة مصورة لحفل لوبتشيلي تسلط الضوء على «اندريا لوبتشيلي»

وأطفأت الأنوار ولم أترك سوى تسرية من الضوء البسيط، وجعلتها كأنها في عرض حصري وانبهر الجميع من عرض لوبتشيلي، وكأنهم جالسين أمامه في حفل أوبرالي، وعندما همست لي أثناء العرض قالت : متي فعلت ذلك ؟ أشرت إليها بالصمت .

وشعرت أنها فرحة جدا كطفلة أهداها أحدهم بالونات، وظللت ناظرًا إليها وإلى ضحكات وابتسامات فمها.

فعندما يحل الحب على المرء يقع راكعًا جاثيًا على ركبيته، تشعر وكأنك امبراطور عظيم ذا سلطان وفجأة يدور بك الزمان فتخسر هيبتك وعرشك وتاجك، ثم تصير فيه كالدراويش تشفق عليك الناس وأنت منتظر نظرة حنان أو لحظات جفاء من المحبوب.

تشعر بشعور غريب لا تعرف من أين أتاك، شعور قد عجزنا عنه نحن أطباء الجراحة القلبيه عن تحديد أو تسمية مايشعر به مريض الحب، ذاك الشعور المستنبط من الأوردة أو الشراين عندما تري الحب مواجها لك، شعور يلزمك كلما لمحته من بعيد، شعور يأتيك من يد السماء كسهم من فوق العرش يخترق قلبك الحزين فيطهره من أنجاس وأقذار .

وفي الصباح غادرت الفتيات برلين ولما أتيت من العمل في الظهيرة، وجدت السيدة التي تأتي لتنظف البيت كل فترة وصعدت مسرعا إلى أعلى نحو الغرفة التي كانت تجلس فيها ومددت جسدي على الفراش، ونظرت ناحية المرآة وجدت حذائها الدبدوبي فذهبت إليه مسرعا وأخذت ألامسه بيدي وأخذته ووضعته في خزانتي الخاصة بين أشيائي .

ونزلت أحتسي القهوة في حديقة المنزل على دخول إلياس يقول لي : لقد سافرت لارا وكنت أتمنى ألا تذهب وكل مايدور في ذهني إذا كانت قد تذكرتني قبل مغادرتها وفجأة أتت السيدة التي تنظف البيت وبيديها إيشرب شفاف، وقالت : لقد وجدته في حجرة التلفاز ورد إلياس قائلا:

هذا ملك إيمان أعتقد أنها لم تتذكره وتذكرت أن هذا الإيشرب كانت ترتديه على عنقها، مراد : أجل يا إلياس .

مراد !!

ما رأيك في إيمان ؟ ماذا ؟

ما الذي لفتك بها ؟ إنني أرى ذلك من نظراتك لها لمَ تتركها طيلة الأيام الماضية ؟ مالذي لفتك بها ؟ إنها لم تحاول لفت انتباهي ولو لمرة واحدة .

وأخذته منها إلى أن قام إلياس ودخل إلى الداخل وأخذت أشمه، ولما دخلت أيضا دخلت إلى المطبخ لكي أضع فنجان القهوة فوجدت تلك الرسالة منها معلقة على باب الثلاجة تشكرني على عرض لوبتشيلي، وعلي زهور الأوركيدا التي أعطتها إياها، وعلى ضيافتي لها، مما زادني شوقا وحنينا لم أدرك من أين قد وقع علي، وصعدت إلى غرفتي مسرورًا أحمل أشياءها .

ومر شهرين وكنت جالسًا أتصفح أشعة مريض في غرفتي في المستشفى، وكان يعمل معي إلياس في نفس المكان فدخل مسرعًا نحوي يحمل صحيفة بيدة حتى قلت له : لم أراك تحمل صحيفة ورقية من قبل، وهل يوجد صحائف ورقية الآن ؟ أراك متحاملا فإن الإنترنت لم يجعل شيئاً مخفيا، فألقاها إليَّ قائلاً : أريدك أن تقرأ هذا المقال فوجدتها الصحيفة الجامعية لجامعة إيرلنغن نورتنبرغ مقال بعنوان رئيسي «الغربة مابين الأمل والألم»

الغربة ؟!

إنها لأشخاص أرادوا استكمال حياتهم بعد انتصاراتهم على تلك العادات البلهاء أو لأشخاص غادروا أوطانهم مضطرين من أجل الركض وراء لقمة العيش، أو لفئة غادرت وطنها لاجئة مضطرة للنجاة من تحت قذف النيران والطائرات .

الغربة مابين المضطر واللاجيء ...

فإنها لهم كالحلم المعلق في السموات يتمنى دعاء أحد الصالحين في قبول أمنية من قِبل المتصوفين فيتحقق، ثم تراها كجنون شباب في المواصلات العامة ولعب أوراق الحظ، كضحكة صبية أرادت أن تلفت الانتباه إليها، كشرود فتاة تحمل معها حقائب الرحيل، كألفاظ رجل غريب اللهجة عندما يحل السكون، كغفوة مرهق قادم من عمله على تلك الأغاني الشعبية التي يضع فيها السائق همه.

فننسى تلك الليالي التي أعلنا فيها استسلام أرواحنا، تلك الليالي التي تمنينا لو أننا نبكي أشياء أعمق من الدموع والتي تمنينا أن نتقيء أرواحنا المتعبة المذلة خاوية المشاعر وحتمًا سيأتي الوقت الذي ننسلخ منه كانسلاخ الليل من النهار ونستيقظ بشعور قوة لا نفهم من أين مصدرها .

نستيقظ وكأننا أشخاصًا آخرون لا نشبه بها كنا عليه بالأمس، نصبح أشخاصًا آخرون، كمحارب في جيش ملكي إذا أصيب في ذراعه فقام ببتره وحارب بذراعه الآخر، ويظل يحارب إلى أن يفقد آخر نفس في أعماقة دفاعا عن نفسه ومستقبله .

ماعلمتني اياه الغربة :

فقد علمتني الغربة أن أنظر إلى الورد كلما ضاقت نفسي، كما علمتني في نفس الوقت أن أبتعد عنه، أفهمتني الغربة تلك القصة التي كانت تقصها لي أمي - وأنا طفلة - عن الصداقة فأدركت أن الصداقة حدودًا أبعد بكثير من مجرد كلمة تقال .

أخبرتني من أنا وما سأكون و...و...

وكل هذا لايساوي دمعة أمي عند فراقي .....

فأريد أن أشارككم ببعض الأبيات المحببة لي :

«أكلف النفس صبرًا وهي جازعة

والصبر في الحب أعيا كل مشتاق

أبيت أرعى نجوم الليل مرتفعا

في قنة عز مرقاها على الراقي

تقلّدت من جمال الشهب منطقة

معقودة بوشاح غير مقلاق

كأن نجم الثريا مضطرب

دون الهلال سراج لاح في طاق» «البارودي»

التوقيع (إيمان مجدي)

فكنت أغرق في حبها أكثر فأكثر كغرقان غابة بأكملها في بحيرة النمسا الخضراء عندما يذوب الجليد .

وذهبت إليها إلى ايرلنغن في مؤتمر طبي استغرق أسبوعين وقابلتها هناك، وفي الأجازة أتت مع بروفسيرها بروف غراس للذهاب إلى المركز الإسلامي فكان هذا اليوم عصيب جدًا وشاء القدر أن أكون بجانبها وقت محنتها وأن أكون وطنها حين يلتهمها المنفي لما سمعناها تصرخ صرخة واحدة ألا وهي أبي ركضنا نحوها وهي مغشي عليها .

ولما أفاقت أفاقت بعيون دامعة كانت في حالة تشبه الانفصام ولا تشعر بأحد من حولها ونحدثها وكأن شيء ضخم يقف على أذنيها لا يجعلها تسمع من حولها، ولما صمتنا لبرهة

وكففنا عن الحديث سمعنا صوتها المخنوق: لقد مات أبي ولم أستطع أن أشم رائحته، ولم أتمكن من تقبيله، هل أنا سيئة كي لا أراه لآخر مرة في حياته، أم هذا ثمن ضريبة الغربة التي كان يحدثني عنها طوال الوقت، وقامت بإخفاء وجهها بين ساقيها فكادت أن توشك على حالة انهيار فساعدتها على النهوض حيث لم تتمكن من الصمود فحملتها بين ذراعي وصعدت بها نحو غرفتي وأقلتها على الفراش.

ونزلت مسرعًا نحو الباب وركبت سيارتي وأحضرت لها إبرة مهدئة وبسرعة فائقة كنت بجوارها وأعطيتها إبرة الوريد المهدئة، ثم استأذنت من إلياس وبروف غراس بأن نتركها كي تستريح، حيث قال بروف غراس :

إنها صدمة قوية بالنسبة للفتاة وفاجعة موت أبيها لم تكن يسيرة بالنسبة لها، وخاصة وهي بعيدة عن الديار والأوطان فسوف أتركها في رعايتكما لمدة يومين وأنا سأتولى أمر أجازتها في الجامعة، أخشي ألا يزيد المرض عليها، لقد حان وقت المناقشة والاختبارات، أريدها في ذهن صافٍ وبال خالٍ .

وصعدت إلى أعلى وجلست بجوارها على مقعد خشبي ووضعت يدي على جبينها، ووضعت يدي على شعراتها

وكنـت أول مـرة أراه وتذكـرت صدمتهـا ففاضـت عينـي مـن الحـزن فكانـت جفنـي الباكي أخشـى مـن مواجهتهـا في الصباح حينـما تفيـق، وظلـت نائمـة حتـى الظهـيرة .

واسـتيقظت بعينهـا المنتفخـة قليلاً من أثـر عينيهـا النضاختان فوجدتنـي جالسًـا بجوارهـا فكشـفت عـن غطائهـا، وقالـت هـل فاتتنـي صـلاة الظهـر، ولمـا قامـت مسرعـة شـعرت بـدوار وانطرحـت أرضًـا وفقـدت الوعـي لمـدة عـشر دقائـق وأفاقـت .

وكنـت قلقـا عليهـا فطردتنـي مـن الغرفـة وأبدلـت ثيابهـا ونزلـت تحمـل ثيـابي بيديهـا وفجـأءة رن هاتفهـا فأخـذت نفـس عميـق، ثـم أجابـت عـلى الهاتـف بـلا مبـالاة وظللـت أراقـب حركاتهـا فسـمعتها تتحـدث مـع أحـد يُدعـى عمر وتجيـب علية بلغـة اسـتهزاء حتـى قالـت لـه:

- أتذكـر يومـا عندمـا قلـت لا يفرقنـا إلا المـوت، ولكـن تأخـر المـوت وافترقنـا، وشـكر الله سـعيك يـا ابـن العـم، ثلاثـة أعـوام انتظرتـك بنفـس اللهفـة والاشـتياق والحنـين نتخاصـم ونتصالـح ونتخاصـم، كنـت سـائرة في بحـر هـواك الغـادر ولكننـي كنـت متيقنـة حتـما سـأغرق فيـه إلى أن أتـى اليـوم الـذي اسـتطعت فيـه بـكل قـوة أن يتحـول قلبـي بنفـس درجـة تلـك الحـب العابـر إلى كـره شـديد أبـدي.

ثـم أغلقـت الهاتف حتى اندهشـت كثـيرا من أمرهـا واتجهت ناحيـة المطبـخ ترتـدي ثيابهـا وتضع تلـك الثيـاب خاصتـي التي كانـت ترتديهـا في غسـالة الملابـس ركضـت نحوهـا ونزعـت منهـا ملابـسي، تقـول لم تفعـل هكـذا فإنهـا غـير نظيفـة، فقلـت لهـا اتركيهـا أريدهـا غـير نظيفـة، ولتعلمـي أن تلك الثيـاب لدي لم تغسـل حتـى الآن، ثـم سـألت عـن بـروف غـراس فأخبرتهـا بمكوثهـا يومـين فقالـت :

- أريـد أن أذهـب مـن أجـل دروسي، ولمـا مـدت خُطاهـا شـعرت بـدوار فركضـت نحوهـا، فقالـت : أنـا بخـير أريـد أن أتمشـى قليـلا بمفـردي، فقلـت : سـمحتي لي أم لا ؟ سـأرافقكِ دون أي نقـاش، وسـيرت معهـا باندهـاش مـن أمرهـا فكانـت تُـسرع الخطـى عنـي إلى أن سـبقتني بخطـى عجولـة .

فركضـت وراءهـا وألحقـت بهـا وأمسـكت يديهـا ووجهتهـا نحـوي وقمـت باحتضانهـا، وكأن الكـون في حالـة مـن الدوران حولنـا واحتويتهـا بـين أضلعي بقبيـل شيء من الحنـين لا أعرف إن كان حنـين قلبـي أم حنـين عقـلي الـذي كان خائفًـا عليهـا بسـبب حادثـة وفـاة والدهـا وخاصـة تصرفتهـا الغريبـة منـذ أن أفاقـت مـن نومهـا فتمتمـت بـين نفسي لا تحـزني فأنـا عـكازك حـين يغتالـك التعـب، وأنـا وطنـك حينـما يلتهمـك المنفـى.

ثـم ردعتنـي بعيـدا عنهـا وبحثـت عـن هاتفهـا في حقيبتهـا ولم يهـدأ قلبهـا إلا بعـد أن تحدثـت مـع أخواتهـا ووالدتهـا التـي هدأتهـا في الغربـة قائلـة:

- لا داعـي لمجالـس العـزاء فـإن أبي كان لايحـب تجمـع النسـاء، ولا يحـب شـيئًا مـن هـذا القبيـل وأنهـت المكالمـة وجلسـت عـلى الرصيـف في الطريـق فجلسـت بجوارهـا أهدئ مـن روعهـا ومـن بكائهـا عندمـا بكـت بحرقـة شـديدة تتمتـم :

- لمـاذا أبي دونًـا عـن البـشر، إننـي لا اعـترض عـلى قضـاء الله وقـدره ولكننـي رسـمت في مخيلتـي أنـه سـيراني عـروس ويحمـل أحفـاده منـي، وسـيظل بيننـا إلى أن يغطـي المشـيب رأسـه ولحيتـه كاملـة، ياليـت الأب ليـس مـن المحرمـات فكنت أول مـن تزوجـت أباهـا .

لقـد سـمع الكثـير مـن حديـث وتفاهـات النـاس عنـه عندمـا سـمح لي بالسـفر، ولكنـه كان لايبـالي، وفجـأءة ونحـن جالسـين ننظـر إلى الميـاه التـي تسـطع فيهـا ضـوء الشـمس وقـت غروبهـا في بـدء إحـلال الليـل فتجعلهـا كاللؤلـؤ المنثـور، وشـاهدنا سـفينة سـياحية كبـيرة تتسـلل منهـا موسـيقى بتهوفـن «ضـوء القمـر» فحاولـت إخراجهـا مـن جـو كآبتهـا وقلـت: أتسـمعين تلـك الموسـيقى فطأطـأت رأسـها .

أعتقـد أن سـوناتا التـي تعني ضـوء القمر اسـتوحاها بيتهوفن مـن عـالم آخـر غـير الـذي نعرفـه... عـالم فيـه أبعـاد رائعـة مـن السـحر والجـمال يفـوق إدراكنا كبـشر، لكننا لمسـناها بشـكل ما .

ويُقـال قـد ألفها بيتهوفـن في لحظـات ولادة سـوناتا بيانو رقم أربعـة عـشر، كـما يقـال أنـه ألّفهـا في الفـترة التي بـدأ يفقـد فيها حاسـة السـمع، وفي هـذه الفـترة كان يشـعر بخجـل شـديد كلـما عـزف أمـام الناس ؛ لأن حاسـة السـمع لديـه كانت تتدهـور، مما جعـل تلميذتـه الكونتيسـة «جيوليتا جيكاردي» تشـتري لـه بيانو غـالي الثمـن جـدا مـع وعـد منهـا أنهـا سـتتركه بمفـرده في البيت كـي يعـزف عليه بمفـرده دون مشـاركة الجمهـور، إلّا أنهـا كانت تقـف تراقبـه مـن بعيـد وتشـاهده مـن وراء بـاب حجرتـه كـي تتأكـد إن كان قـد فقـد سـمعه، في البدايـه «بيتهوفـن» كان يعزف بعـض النغـمات نشـاز ويترك إيحـاء أن موهبتـه كادت تنفـذ إلا أنه بعدهـا يبـدأ بتأليف واحـدة من أجمـل موسـيقاه وأكثرها شـهرة.

كـما ذهبـت إلى أحـد المتاحـف الموسـيقيه ورأيـت صـورة كبـيرة لـه، أخـذت أنظـر إلى تعابـير وجهـه الوهميـة التـي تجعلـه عـلى خشـب البيانـو يحـاول أن يسـمع بصعوبـة تلـك الذبذبات الضعيفـة للنغـمات السـاحرة التـي ألفهـا حتـى وقفـت عاجـزا عـن حركـة جفونـه وطريقـة ضـم شـفاهه وعينيـه المقفولـة

ووضع رأسه الجانبي على البيانو، ثم شعرت بأن تلك اللوحة كأنها كاميرا تزوم ببطء عليه، وكأنها تتدخلك في العالم الصامت لديه بشكل تدريجي كي نفهم روعة موسيقاه .

وماذا بعد ؟

أأعجبتكِ!

كل ما أردته هو إخراجها من حالتها .

كانت مختلفة عن باقي النساء اللاتي مررن بحياتي، مختلفة في لحظات قوتها وانفرادها المدهش في عزلتها، جنونها، سهادها .

أريد أن أخبرها بتلك الكلمة التي لم تخرج مني قط لأي امرأة كانت، شعرت وأنها من كتبت على جبيني، وتلك التي هي من جعلتني أسير نحو الطرق المتعرجة التي توصلني في النهاية إلى القدر، وهي تمشي على مهل دون استعجال على أوتار العاطفة .

- لماذا صمت ؟

فتخرج الكونتيسة وتقتل كل هذا الجمال عندما وضعت يدها على كتفه فانقد وانتفض بشدة ؛ لأنه كان معتقدًا أنه

بمفـرده فانفجـر صمتـه بـصراخ رهيـب وانفعـال شـديد عليهـا ؛ لأنهـا انتهكـت خصوصيتـه في تلـك اللحظـات التـي طلـب أن يعيـش فيهـا وحيـدا، كـما ذكـر التاريـخ أهـدى بتهوفـن السـوناتا للكونتيسـه جيكاردي بعـد شـهور مـن تأليفهـا، عـام ألـف وثمنمائـة واثنـان، وأنـه مـن الواضـح مـن هـذا أنـه قـد سـامحها بعـد هـذا الموقـف .

شـعرتْ بدوار فـزادني الشـك حيالهـا وأردت أن أعرضها على أحـد الأطبـاء أصدقائـي، وبالتالي بعد مناقشـة وحـدة في الحديث أقنعتهـا بأنهـا تـأتي معـي إلى المستشـفى بعدمـا قصصـت أعرضها عـلى طبيـب صديقـي، وأراد أن يراهـا وفحصهـا الطبيـب، ووقفـت بجانبهـا وقـت عرضهـا عـلى الطبيـب وقد شـككت في الأمـر عندمـا طـرق عـلى سـاقها بالمطرقـة الصغـيرة فاسـتجابت قـدم عـن الأخـرى بدقائق.

نظـر لي الطبيـب ونظـرت إليـه وفي المسـاء لم أنسـى ضحكاتها وفرحهـا عندمـا أخرجـت مـن الحقيبـه ملابـس حريميـه لهـا، وكانـت واسـعة بعـض الـشيء، وغطـاء رأس حريمـي ونوتيـلا حيـث كانـت تحبهـا حبـا جمـا .

ثـم غـادرت هـي إلى ايرلنغـن وظللـت متابـع حالتهـا مـع صديقـي الطبيـب الـذي قـال لي : لقـد أتاهـا هـذا اللعـين فلـم

تقـدر سـاقي عـلى حمـلي فأخـذ يثبتنـي، ويقـول أأنـت فعلـت هـذا فـما بالـك مـن معرفـة صاحبـة الشـأن قائـلا:

لقـد عرضـت هذه الأشـعة عـلى بعـض الأطبـاء المتخصصين في معهـد الأورام، وأرادو عمـل فحوصـات الـدم الروتينيـة مـرة أخـرى والفحـص السريـري للتأكـد مـن علامـات المـرض كـما يريـدون أخـذ خزعـة مـن نخاعهـا العظمـي وسـحب عينـة مـن سـائل النخـاع.

وظللـت في حـيرة مـن أمـري كيـف سـأخبرها لقـد دخـل عليهـا وقـت مناقشـة الدكتـوراه، وأصبـح عقـلي لا يفكـر بـأي شـيئ سـوى معرفتهـا بهـذا الأمـر الخطـير، ولابـد لهـا مـن عـلاج كميائـي فإنـه في بدايتـه ويكـن بمقدورنـا التحكـم بـه قبـل أن يتحكـم هـو بهـا.

وكتمـت الأمـر بينـي وبـين نفسـي إلى أن آتـاني إليـاس وهـو يتحـدث مـع لارا فأخـبرني أن إيـمان قـد أغمـي عليهـا اليـوم في المحـاضرة، ودخلـت المرحـاض فدخلـت وراءهـا، وعندمـا انتبهـت لي أخفـت شـيئا في يديهـا، وأخـذت تغـير الموضـوع، وتريـدني أن أخـرج في الحـال.

فتناوبنـي الفضـول لمعرفـة الأمـر الـذي تخفيـه وراءهـا، دون أن تشـعر بهـا بأنهـا تلقـي شـيئا مـا في صنـدوق القمامـة المتواجـد

في المرحـاض، ولمـا خرجـت دخلـت وفتشـت في صنـدوق القمامـة فوجدتـه محرمـا ملـئ بالبصـق المخلـوط كثـيرا بالدمـاء، ولكـن غـير متأكـدة أنـه لهـا أم لا، فلـما سـمعت هـذا القـول ازددت قلقـا أكثـر.

ومـرت الأيـام وأتـى يـوم مناقشـة الدكتـوراه لهـن فعـاق المـكان بعـض الضوضـاء مـن الحاضريـن وفجـأة عـم الصمـت في أرجـاء القاعـة مما ازداد الطـلاب رهبـةً وخوفًـا، وجلـس الطالـب الأول عـلى مقعـد أمـام أسـاتذة المنصـة، فـكان لـكل طالـب رسـالته الخاصـة وموضعـه الخـاص، لا يشـاركه فيـه أحـد مـن زملائـه.

وقبـل مجـئ الـدور عليهـا ذهبـت إليهـا وأعطيتهـا السلسـال كـي ترتديـه قبـل صعودهـا بدقائـق، ثـم صعـدت وتناقشـت مع الأسـاتذة في موضـوع مـا بـين الأدب العـربي والأدب الغـربي في القـرن التاسـع، ثـم قصـت طرفـة سـاعة الحائـط خاصـة هارون الرشـيد التـي أهداهـا لشـارول مـان «فريدريـك الثـاني» ملـك أوروبـا في ذاك الوقـت، فضحـك الأسـاتذة والجميـع، وقامـت ليجلـس طالـب آخـر، ثـم جلسـت عـلى مقعـد بجـواري فهمسـت إليهـا: أحسـنتِ صنعـا يافتـاة.

انظـر لقـد جعلـت الألمـان يضحكـون، وأنـتَ تعـرف مـن الصعـب أن يضحـك الألمـان، وابتسـمت ابتسـامة عريضـة، ثـم غمـزت بطـرف عينيهـا ونظـرت أمامهـا، وظللـت ناظـرًا إليهـا بخفقـان قلبي الشـديد وكأن عاصفـة بركانية تنبعث مـن داخله .

وهـا قـد حـان وقـت إعـلان النتيجـة فـإذ هـي في المركـز الثـاني بعـد طالـب طـب، ومنحـت وتفوقـت وحصلـت عـلى شـهادة الدكتـوراه بمرتبـة عاليـة .

ومـع فرحتهـا الشـديدة قامـت باحتضـان الجميـع، ومـن فرحتهـا تقدمـت مقتربـة مني إلى أن أفاقـت لنفسـها وابتعـدت، ولكنـي لازلـت أحتضـن يديها بيـدي فأحمـرت وجنتيهـا خجلا، ثـم بكـت فانشـغلت بهـا كثـيرا محـاولاً تهدأتهـا وهـي تقـول:

مـاذا لـو كان أبي موجـودا بجانبـي الآن ؟ مـاذا لـو كان لازال حيًـا لـوزع الحلـوى عـلى جميـع القريـة مـن فرحـه الشـديد بي .

ليـس الآن وقـت البـكاء ياعزيـزتي إننـي متأكـدةً أن والـدك يشـعر بـما تشـعرين بـه الآن، ولتعلمـي أنـه ليـس حـاضرًا معـك بجسـده، ولكـن روحـه تحيطـك وأنـه مـسرورًا جـدًا لأجلـك، فعـبرت بتعابـير وجههـا فرحـة، اعلمـي أنهـم مثـل مايقـول أحـد الأدبـاء: إن كل مـا تشـتاقه الأرواح تبلغـه الأرواح.

- شكرًا كثيرًا لكَ .

وأقمنا حفلاً بمناسبة نجاحهن وطلبت منها أن أراها صباح غد ذاك اليوم ووافقت، وذهبت أنتظرها إلى أن توجهنا إلى حديقة عامة بعدما قررت أن أخبرها، وبدأت حديثي معها متسائلا :

- إيمان ماذا أعني لكِ؟ فأجابتني بالألمانية : أنت أكبر من كلمة صديق، وبعنفوان أجبتها : أرجوك عودي إلى طبيعتك، وحدثيني باللغة العربية ولما وجدت نفسي متحاملا عليها اعتذرت منها، ولما رأيتُ ابتسامتها على وجهها تقول تعلم أن الحياة يجب ألا تُرى من الجانب الشقي منها، ولابد أن نرى الأشياء الجميلة فيها فإنها عابرة .

فازداد الأمر تُعسرًا إكثر ولما شاهدتها تركض لتلاعب الفراشات كطفلة صغيرة تذهب مع والديها إلى حديقة الألعاب لأول مرة في حياتها، وتقطف الورود وتشمها كعمياء تشعر بالجمال الداخلي لكل شيء حولها لقد هطل المطر ! ماذا تفعلين ؟

- أعشق المطر.

- لماذا ؟ لأنني أبكي فيه بحرية دون إزعاج .

- ولمَ تبكين ؟

- لا أعلم ولكن يكون مأوى أشعر وكأنه يغطي على أدمعي فيندمجا سويا كي لا يلاحظ أحدا ما ضعفي .

فقررت إخفاء الأمر وبدلت الحديث معها عن أسرتها، ومن أي قرية في قرى الريف المصري، وقد علمت من حديثها أنها تحب الموسيقي الكلاسكية، وهي تقرأ أمام المدفأة في الشتاء والبرد القارص، وأي الفرق تشجع، رسمت أخواتها البنات في مخيلتي قبل أن أراهم من حديثها الشديد عنهم .

وقد جمعت عنها المعلومات التي تساعدني في الوصول إليها فور وصولي إلى مصر، وغادرت ألمانيا تاركة لي ثروه كبيرة من الحزن فلم أطق العيش بدونها، ولا مفر من تلك السيدة سيدة المشاعر.

- مراد لمَ تقوم بتحضير سفرك إلى مصر؟ من أجل إيمان .

- ماذا ؟ أتحبها ؟

- لا أدري ...

- إليـاس: بـما كنـت تشـعر في غيـاب لارا ؟ بـما تشـعر بـه أنـت الآن .

- أنا أشعر باختناق، أرى وجوه جميع الفتيات في وجهها

- من؟ إيمان ؟

- عـدم الحديـث معهـا يجعـل الدنيـا كثقـب أسـود صغـير كثقـب الأبـرة يبتلـع جميـع الألـوان، ولـن يـترك سـوى الظـلام والسـواد ولـن تـأتي البهجـة إلا عنـد تذكرهـا فقـط !

- بالتأكيد تحبها !

- دعنـا لانتـسرع كثيرًا فـكل ما في الأمـر أن غيبتهـا ..تقتلني.

وأحــضرت أوراق الســفر إلى مــصر بعدمــا علمــت أن المستشـفى أرسـلت إليهـا بريـدًا بـه تحاليلهـا الطبيـة تلـك في انتظـار يـوم سـفري وسـفرت إلى أن وصلـت إلى قريـة قريبـة مـن قريتهـا فهاتفتهـا وقالـت:

- فأنـا آتيـة إليـك وأتـت مـع زوج أختهـا وتقدمـت بطلـب الـزواج منهـا، كـما ذهبـت إلى الإسـكندرية كـي أطلـب يديها من عمهـا وأتـت الخطبـة، وبمرور شـهر مـن الخطبـة تزوجنـا وأقمنا حفـل الزفـاف في مـصر، وغادرنـا مـن مـصر إلى المملكـة العربية السـعوديه كـي نعتمـر، ثـم غادرنـا إلى برلين .

وأنـا لم أخبرهـا بعـد عـن شـأن مرضهـا فتـزداد الأمـور تعقيـدا فكنـت أشـعر بأنني أنـاني جـدا، ولم أفكـر وقتهـا غـير في طماحـة قلبـي فيـزداد ندمـي حيـال تذكرهـا، ياليتنـي أخبرتهـا بسـبب مرضهـا فـكل مـا أردتـه أن تكـون لي ومعـي، أريـد أن أشـم رائحتهـا وقـت مـا أشـاء فقضينـا معًـا أجمـل الأوقـات .

وبعــد الزفــاف وانتهائــه أردت أن آخذهــا في عطلــة إلى قريــة صيفيــة في ألمانيــا بعــد العــودة مــن العمــرة ذهبنــا إلى قريــة «تيجرنــسي الألمانيــة» التــي تحتفــظ بتقاليدهــا العريقــة، والكنائـس القديمـة ذات القبـاب البصليـة، وبحيراتهـا الصافيـة المتألقـه، وقمـم الجبـال المهيبـة التـي تحيـط بالمكان ستشـد نظرك إليهـا، جمـال طبيعتهـا الجبليـه الانسـيابية الخـضراء، وفي المسـاء دعوتهـا مـن أجـل العشـاء أسـفل الفنـدق، ورقصنـا سـويا .

كانـت ترتـدي ثيابًـا جميلة تميـل إلى اللـون الأخضر»شـيفون« رائـع سـاتر لجسـدها، ثـم صعدنـا إلى أعـلى وأتممنـا الرقصـة بـدون موسـيقى فمسـت شـفتاي جبهتهـا عندمـا وضعـت رأسـها في منتصـف صـدري، وجردتهـا مـن حجابهـا فانطلـق شـعرها الأسـود مرسـلا يغطـي ظهرهـا، وشـممت عطرهـا بحركـة زفـير طويلـة فتذكـري جيـدًا فإنهـا الليلـة أول ليلـة لبدايـة الخلـود، وقمـت بإغـلاق الضـوء ولم أتـرك سـوى

ضـوء خافـت أحمـر يـضيء جـزءاً صغـيرًا مـن الحجـرة . . .

أفقنـا عـلى صوت الخـراف والماشـية وزقزقة العصافـير ونزلنا للتنـزه بعـد الفطـور في الغابة السـوداء، وكأن الطبيعـة فيها تعزف ألحـان خالـدة، وفي المسـاء ذهبنـا لمشـاهدة فيلـم جديـد في إحدى الأمسـيات فانهمـر المطر .

– ما هذا لقد هطل المطر؟

– أجل تشبثي بيدي سنركض إلى السيارة وداخل السيارة

– أليس معك محرم ؟

– ماذا تفعلين ؟

– أحـاول تجفيـف وجهـي مـن قطـرات المطـر بمحرمـك، ووصلنـا إلى الفنـدق وبسرعـة صعدنـا إلى غرفتنـا أبحـث عـن منشـفة مجففـه لهـا، وخرجـت مـن الحـمام ترتـدي ثيابًـا سـوداء محتشـمة بعـض الـشيء يغطـي الرقبـة عـدا الأكتـاف عاريـة، وعليـه حـزام برونزيـا مـع شيء مـن البريـق، خرجـت بعدمـا صففـت شـعرها إلى أعـلى مما أضفـى جمـالا أكثر عـلى قسـمات وجههـا، وكـم هـو رائـع مـع الفـم الصغـير المغـري

– سيد مراد لم صمتَ ؟

- وماذا حدث بعد بعد أن دعوتها لتناول العشاء أسفل الفندق ؟

ذهبنا لنستمتع ببعض الوقت فكانت تحب الهدوء وذات ليلة جالسة على الشاطيء شاردة فحاولت أن أعرف ما حل بها وجدتها دامعة، ولما اقتربت أدنو إليها، ووضعت يدي على كتفها أبعدتني عنها فشعرت بأنها لم تكن راغبة بي أو أن لا زال حب عمر محاط بقلبها، ودار بيننا الحديث على هذا المنوال : أشعر إنك لم تقربيني منكِ لأنكِ لا زلتِ عالقة بعمر، ولكن أريد قبل أي شيء أريد أن أكون صديقك فقط إذا أردت، ولكن لا تبغضيني كل البغض هكذا.

فازدادت بكاءً فأردت ضمها إلى صدري، ولكنها أبعدتني عنها مرة أخرى، لا أعلم عندما كانت تتحدث ما عساي إلا النظر داخل بؤبؤ أعينها فأتمنى أن تهجر كل الأماكن وتسكنني .

وفجأتها بعد أن استأجرت لها فستانا لأميرة ديزني سندريلا ووضعته على الفراش وبجواره ورقة : أتمنى أن ترتديه الليلة ودعوتها إلى قصر نويشفانشتاين [حجر البجع الجديد] الذي يقع في جنوب غرب ولاية بافاريا ؛ ليكون معزولا وهذا سبب إشهاره في أوروبا .

فقد بناه لودفيك الثاني في نهاية القرن التاسع عشر لمحبوبته التي حاول إخفاء الأنظار إليها من شدة جمالها؛ ولأنها كانت مراهقة العمر كان دائم لعب الشطرنج وألعاب الذكاء معها، كلما استعد لحرب خرج من عندها، وهكذا بعد الانتصار يعود محتفلا معها أولاً .

ونزلت بثياب سندريلا حيث كانت مندهشة من نفسها ومن هذه الثياب، وصرخت ضحكة عندما رأتني أرتدي ثياب أمير سندريلا واتجهنا إلى هذا القصر ورقصنا رقصة السندريلا، رقصة الزومبا الكلاسكية، تلك الرقصة المعروفة بجمال الخطوات المتزامنه بوتيرة بطيئة مع أخذ الأنفاس سويا عند أداء الرقصة .

وتناولنا طعامنا ثم شعرتْ بدوار وأرادت الرحيل إلى الفندق، ولم نفوت الذهاب إلى زيارة «اوبرامارغو» القرية التراثية الجميلة موطن نحاتي الخشب، وأقمنا ليلة في إحدى البيوت الملونة، وشاهدنا مسرحية الآلآم التي تعرض كل عشر سنوات .

وفي الصباح حجزنا تذاكر لقارب في بحيرة شتارنيبرغ وتمتعنا بجمال الطبيعة الخضراء الزرقاء البيضاء .

كانـت تشـعر بالاسـترخاء فرحـة كطفلـة، وهـي بـين جوانب صـدري أشرح لهـا عـن المعـالم والطبيعة .

- كيـف عرفـت كل هـذه المعلومـات وأنـت تقـول لي إنهـا زيارتـك الاولي في رحلـة إلى بافاريـا ؟

- أجـل ياعزيـزتي حقًـا فإنهـا الرحلـة الأولى إلى بيـارن لأننـي كنـت دائـم السـفر إلى سـويسرا وفرنسـا، ولم أتسـكع في ألمانيـا إلا شـوارع برلـين، ولأول مـرة أشـعر وكأننـي آدم وأنـتِ حـواء قبـل نزولنـا مـن الجنـه، كـم أتمنـى أن نبقـى بعيـدًا بمفردنـا نتمتـع بجـمال الطبيعـة الكونيـه ولا نحتـاج لأحـد، كركـرة مـن صميـم قلبهـا تجعلهـا تغمـض أعينهـا بشـدة.

- أتظـن أنـك طـرازان وتسـتطيع أن تعيـش بمفـردك هنـا! أجـل ولكـن ليـس بمفـردي معـكِ فقـط، وقضينـا معظـم أمسـيتنا في درسـدن .... معجـزة نهـر إلبـه.

كنـت أجعلهـا نائمـة وأسرق التلصـص إليهـا وأشـتم رائحـة جسـدها التي تشـبة رائحة البرتقال، نشاهد المباريات سويا، نصنع الأطعمـة، نقرأ الكتب، تعلمنا سـويًا هوايـة الصيد والركوب على الدراجـة وهـي أمامـي وقوفهـا بقـوام مائل تضـع يديهـا البيضاء عـلى البيانـو وتريـدني أعـزف معزوفـة قصـة حـب كـي تتراقص مـع أنغامـي ولاتريـدني أن أنهـي المعزوفـة إلى أن تدمـع عينـي .

- ما رأيك إذا علمتني العزف على البيانو ؟

- إذا أردتِ أن تتعلمي العزف فلتتعلمي أصول الموسيقي ألا وهي النوتات الموسيقية ؟ أوالسلم الموسيقي:[دو، ري، مي، فا، صول، لا، سي، دو]

- إذن لماذا هذ الزر الأسود والزر الأبيض أيضًا؟

- هذا ليس زراً.

- إنه مفتاح البيانو.

- فالمفاتيح السوداء تعزف النوتات الحادة، والمفاتيح البيضاء تعزف النوتات الخفيفة أو الناعمة، وهي تأتي على شكل مجموعات من اثنان لثلاتة مفاتيح، ثم ابحثي عن المفاتيخ السوداء الخمسة التي على شكل مجموعة من ثلاثة ومجموعة من اثنين في وسط البيانو، والنوته الوسطى موجودة على يسار المجموعة السوداء، والآن ضعي ابهامك الأيمن على هذه النوته ستلاحظين أنكِ صعدت للأعلى وللأسفل في البيانو.

- هيا حاولي اللعب على البيانو واعزفي النوتات بالتدريج، وتذكري أن تبدئي من مفتاح النوتة سي، ثم حاولي مرة أخرى أن تتلاعبي بالنوتات حتى تعتاد يدك

على العزف قليلاً حتى تتعود أذنك على صوت كل نوتة .

- إنه صعب جدا .

- لاشيء يسمى صعبًا بالإرادة والحب تستطعين، وتذكري بمفردنا نفعل القليل، لكن معًا نحقق الكثير.

شرودها مع بكرات الصوف وصنع الملابس الصوفية لي، شراء أسطوانات الأفلام العربية القديمة ومشاهدتها سويا، عن جنونها وهي تركض تحت المطر كالأطفال فاردة ذراعيها تنظر إلى السماء، ركوبها الدراجة والدوران بها وكأنها شابة في الثانية عشرة، كنا نسير سويًا على حافة الشاطيء نشمر سراويلنا، نداعب جرو، نعطي حلوي، ونبني قلاعًا للأطفال، طفولتها عندما ترسم على زجاج السيارة بزخات المطر، عندما تضع رأسها على كتفي وأنا أقرأ لها غراميات راسبوتين، عندما تجلس متكئة على الأريكة متعبه كاسلة أن تزيح شعرتها المتدلية على أعينها فتقوم بالنفخ عاليًا كي تزيحها فتفشل، فأقوم أنا وأنفخ بنفس عميق فتبعد جميع الشعرات أعلى أعينها فتضحك وتطيل الضحك، عن تقليدنا للتمثالين على وينينو كل يوم الساعة السابعة مساءً ونقوم باحتضان بعضنا البعض كمشهد تراجيدي .

وذات مـرة زارنـا أحـد الأصدقـاء كـي يـدع لدينـا طفلتـه حينـما يعـود مـن عملـه فأتـى هـو وزوجتـه فمكثـو ومكثنـا نتحـدث، ثـم قامـت إيـمان بإحضـار القهـوة فأتـت علينـا، وهـو يتحـدث عـن إيجابيـات في زوجتـه.

ثـم قاطعتـه أخـبره عـن إيـمان فوضعـت المـشروب عـلى الطاولـة خجلـة ثـم ركضـت تختبـيء مـن خجلهـا وراء ظهري، فكانـت لا تختبـيء ورائـي إلا كلـما شـعرت بحالتـي الخجـل والخـوف، فـإن المـرأة يخدعهـا الأمـان الـذي يزرعـه الرجـل مـن حولهـا، ثـم يـأتي الحـب مـن تلقـاء نفسـه.

فـكان كلـما دخـل عليهـا الوقـت مـن ذاك اللعـين زادهـا ضعفـا وهنـا عـلى وهـن كلـما زادت في عـدم تحمـل مـن حولهـا وذات مسـاء أتيـت مـن العمـل عـلى صـوت صراخهـا وأصواتهـا المرتفعـة، فنظـرت للعـم يـس : لإعلـم مـاذا حـل بهـا؟!

إننـي كنـت في الخـارج أرى النباتـات ودخلـت عـلى أصواتها تلـك فذهبـت إليهـا مسرعـا كـي أعـرف مـا حـل بهـا، ولكـي أسـتخدم قبـلاتي في إسـكاتها وقـت غضبهـا، فقامـت بالـصراخ في وجهـي :

- اخرج من غرفتي لا أريد أن أراك .

فلمحت تلك الدموع الساكنه بسبب حالتها المزرية وأنا أعلم مابها، ولكني مكتوف الأيدي، لامن أجل ما قالته .

- مراد!

- فلم أجيب عليها وبعد مرور دقائق أتت إليَّ في الحديقة أتت تعتذر عن ما تفوهت به منذ قليل .

فإن أقسى الدموع هي تلك التي لايستطيع المرء إزالتها بنفسه ولكن لاتزال إلا من ذاك الشخص المسبب لها.

وتركتها وغادرت البيت فحاولت الاتصال بي فأغلقت الهاتف، وذهبت متذكرا عندما أدمعت عينها وقت اعتذارها لي، وقمت بحجز تذاكر طيران إلى روسيا لحضور مونديال كأس العالم لكرة القدم، فطرحت تلك الفكرة في رأسي لأنني أعلم إنها كانت مولعة بمشاهدة لعبة كرة القدم، كما أيضا للترويح عن نفسها المتعبة .

ويوم رحيلنا أخبرتها بإمتاع حقيبة لي ولها من أجل السفر.

- إلي أين ؟ رحلة .

- عن أي رحلة تتحدث ؟ فإنك لم تخبرني من قبل .

- أعلم، ولكن ثقِ بي .

كان يكفـي عندمـا أقـول لهـا تلـك الكلمـة بـدون تـردد تغلق عينهـا وتوافـق . فكانـت مفاجـأة مني لهـا ومـن إليـاس لـلارا، وذهبنـا مـن مطـار برلـين إلى مطارالعاصمـة الروسـية موسـكو وحضرنـا أولى المباريـات في ملعـب لوجينكـي الريـاضي، وتداولنـا ملاعـب أخـرى ككريستوفسـكي، وفشـيت الأولمبـي وغيرهـا . وشـاهدنا مباريـات مـصر سـويا وأخـذت تعرفنـي عـلى أسـماء اللاعبـين، وبـدأت المبـاراة وأخـذ المشـجعون بالهتافـات وأخذنـا نـصرخ سـويًا صـلاح .. صـلاح . ذاك اللاعـب الـذي كان بفضـل قدمـه، دخـول مـصر كأس العـالم.

- هكذا قالت لي ..

وسـيرنا تحـت سـماء الليـالي البيضـاء في روسـيا، وكانـت هـذه آخـر رحلـة لنـا سـويا.

ثـم أطالـت النظـر إليَّ بتمعـن : وكأنـك قـد أتيـت لي مـن السـماء، لا ولكـن قـد أرسـلكِ الله لي زوجـة لتحلـو أيامـي ...

ولكـن مـالي غـير أن أحـب تلـك السـيدة سـيدة الأصغريـن التـي تحكمـت بهـما كتحكـم بنـت اليمـن في الـرأس، فكانـت كلـما أرادت أن تقـول لي شـيئًا رومانسـيًا : تقولهـا بطريقـة منمقـة

هامسة إنك ساكن ثابت داخل قلبي . فكانت تلك الكلمات تسعدني لدرجة أنني أحملها وأتأرجح بها يمينا ويسارا.

وبعد عدة أشهر أخبرتني بأمر حملها، ومن فرحتي كدت أدور بها أرجاء الدرج، ولكن السعادة الكاملة لاتدوم وصممت على إنجاب الطفل بعدما نصحتها الطبيبة بعدم إنجابه لسبب حالتها السيئة، ولكنها كانت عنيدة جدا فازدادت إصرارًا

كانت إذا شعرت بالضعف تسللت في صمت وفي خفية إلى حجرة أخرى تفرش سجادتها وتتوضأ، ثم تصلي فكنت أراقبها دون أن تشعر وأسمعها تبكي وتناجي الله عن حالها وتشتكي له عن فعل تلك اللعين معها دون سخط، فإذا انتهت من الركعة الأولى لا تتحملها ساقيها على استقامة جسدها في الركعة الثانية فتسقط أرضًا باكية غير قادرة ولا يكون على شفتيها سوى الحمد والشكر .

كنت أنظر إليها بالعين الدامعة والقلب المفطور أضع يدي على فمي كي لا تسمع تنهيدتي أخاف أن أقترب منها أو أبيّن لها نفسي احترامًا لرغبتها في عدم إخباري عن مرضها بعدما أخبرتني هدى الطبيبة المصرية التي تعرفت عليها إيمان في أحد النوادي الرياضية القريبة من بيتنا، فهي

طبيبة مصرية مسلمة تعرفت عليها عندما كانت تمارس الرياضة وقعت مغشيًا عليها فركضت نحوها تلك الطبيبة وأخبرتها بأمر حملها، ولكن طلبت منها زيارة إيمان لها قائلة :

إن اسفل بؤبؤ العين لم يعجبني فأتي إليَّ وذهبت إليها وأخذت تسألها عن كم مرة في هذا الشهر حدث معها حالة الإغماء وأخبرتها بإنزال هذا الطفل على الفور، ولكنها كانت عنيدة جدا في أمر إنزال الطفل .

– فأنا : أريد أن أنجب كي لا أترك مراد بمفرده، وليكن لديه طفل يذكره بي ولا يهم مايحدث بعد .

– أراكِ تتصرفين بأنانيه ومن سيربي ذاك الطفل الذي يحتاج في أول عمره لرعاية أمه قبل أبيه، وأخبرتني أنها أصرت عليها بألا تخبرني، وأنها ستخبرني بنفسها كان كل ما أستطيع فعلة أن أركض إلى أن اقف في منتصف الحديقة وأتنهد بشهيق وزفير قويان مصحوبان بالدموع كل ليلة أراها فيها في هذه الحالة .

بدأت تفقد لمعان عينيها شيئًا فشيئًا فكنت أخاف أن تقع عيني بعينها فترى في نفسي الضعف التي المحه كلما نظرت إليها .

وذات ليلـة اسـتيقظت مـن نومهـا مـن شـدة الألم فأخـذت تنظـر يمين ويسـار الفـراش ولم تجدني فـازدادت خوفـا ولما نزلت إلى أسـفل تبحـث عنـي وجدتنـي أشرب مـاء في ضـوء خافـت في حجـرة المكتبـة أدمـع كيـف لي أن أخبرهـا بمعرفتـي الحقيقـة، لا أسـتطيع النظـر إلى أعينهـا فدخلـت تحتضننـي مـن الخلـف وأنـا متشـنجا مـن البـكاء فحاولـت أن أمسـح دموعـي مسرعـا.

مايُبكيـك ؟ لا لا شيء، ولكـي أهـرب مـن الحقيقـة، إن المريـض مريـض عمليـة اليـوم لم أنجـح في إنقـاذه، فمسـحت أدمعـي بيدهـا وقالـت :

- أرجـوك لاتدمـع مـرة أخـرى فعندمـا أراكَ في هـذه الحالـة أشـعر بضعفـي وجعلتنـي ألامـس بطنهـا، وعندمـا طلبـت منها أن أزور طبيبتهـا معهـا كانـت ترفـض بشـده فاحـترم رغبتهـا، يكفـي أنهـا كانـت تـأتي سـعيدة كلـما ذهبـت إلى صديقتهـا الطبيبـة التـي كانـت تخبرهـا أخبـارًا سـارةً عـن حالـة الجنـين، أو لا أدري إنهـا كانـت تصطنـع السـعادة.

فكنـت أمازحهـا عـلى ووجههـا التـي بـدأ بإسـقاط إشراقتـه تجيبنـي في ثبـات : إنـك تتوهـم مـا تقولـه لا يوجـد شـيئا ممـا تقولـه ناظـرة في المـرآة.

وذات صباح باكر في الساعة السادسة صباحا وصلت إلى البيت معي امرأة محجبة ترتدي زي عربي تتحدث بالعربية غير قادرة على السير تشبه المصابه بالسل، اصفرار وشحب لون بشرتها غير قادرة على الوقوف، ولكنها ليست كذاك بل كانت حديثة ولادة، فناديت العم يس بصوت مرتفع فأطلت من نافذة غرفة النوم تطل بلباس النوم تفرق عينها بقبضة يدها تنظربإشراقة كإشراقة ضوء الشمس التي تضرب في خصلات شعرها الأسود المرسل، وتضايق تلك الأشعة عينها فأومأت رأسها حتى تنظر من بداخل السيارة ووجدتها سيدة مستلقية نزلت مسرعة بلباس النوم تضع يدها على بطنها المنتفخ بعض الشيء بسبب وجود تلك القطعة الممزوجة مني ومنها ويديها الأخرى أسفل ظهرها ،أتت عابسه خائفة.

- من هذه السيدة ؟! وماذا حل بها ؟!

- لا أعرف ولكن رفضت أن تتعالج في المستشفى، وجدتها وأنا قادم للبيت عندما اصطدمت بضوء السيارة فأغشي عليها ولما ساعدتها من أجل النهوض طلبت مترجية بعدم أخذها إلى المستشفى، وأتيت بها إلى هنا ولكنها حديثة ولادة ومن الواضح عليها أنها لم تستغرق

ساعات كثيرة على ولادتها فإنها تكون قد وضعت مولدها من ثلاث لخمس ساعات تقريبًا .

- ماذا؟!

- فلتساعدني ياعم يس على حمل السيدة، ولكن حاول حملها بانتظام جسدها لأنها إذا وضعت ساقيها على الأرض قد تتعرض لنزيف دموي .

- هل أنتِ بخير ياسيدتي؟ ثم طرحت السؤال مرة أخرى باللغة العربية فهيئة ملابسها تدل أنها عربية، فأجبتني بالعربية إنها بخير، ولكنها تشعر بألم شديد من منطقة الولادة فأحضرت مستحضراتي الطبيه، قائلا :

- أنا جراح قلب ولست مختص بحالات الولِادة، ولكن لا تقلقي فهذا أمر طبيعي، ولكن أين طفلك؟ ومن الذي قام بعملية ولادتك؟

- من أنتِ ؟ أين الطفل؟ فهربت بعيونها مني وأدارت وجهها مما جعلني أشعر بالخوف منها.

دخلت إيمان والعم يس بحساء ساخن لها، مراد : كف عن الأسئلة للسيدة ألا ترى أنها غير قادرة على التحدث! لا يجدر لها الطعام إلا إذا شعرت براحة من الغازات في بطنها .

- مـراد إنـك تخجلهـا ؟! وهيـا خـذه ياعـم يـس إلى الخـارج كـي تتنـاول السـيدة طعامهـا.

ومـرت السـاعات مـن الوقـت وأنـا جالـس في غرفـة المكتب تطـل عليهـا إيـمان مـن حـين لآخـر، ولكـن كل مـا أريـد معرفته مـن هـذه السـيدة وماقصتهـا، وفجـأة رن هاتفـي اتصـالا مـن مديـر المستشـفى يسـألني هـل كنـت مناوبـا ليلـة أمـس ؟

- أجل سيدي مناوبتي كانت ليلة امس .

- هـل مـن خطـأ ؟ أجـل فلتحـضر الآن سـوف نقـوم بعقـد اجتـماع للأطبـاء والرجـاء الحضـور عـلى الفـور وارتديـت ثيـابي وخرجـت مسرعًـا نحـو السـيارة .

- مراد مراد إلى أين ؟!

- اجتماع طارئ في المستشفى، سأعود عندما انتهي.

عـلى صـوت فرامـل السـيارة وصلـت إلى المستشـفى مسرعًـا أتسـاءل مـاذا حـل ؟ ولحقـت بالمصعـد الكهربائـي، ووجـدت إليـاس وبعـض الزمـلاء في التخصصـات المختلفـة والضغـط عـلى رقـم خمسـة للجميـع، ودخلنـا حجـرة الاجتـماع إذ مديـر المستشـفي «د.هاينـرش»، «د.تيـدور» وجلـس كل منـا عـلى تلـك الطاولـة، وأمـام كل واحـد اسـمه فـكان دائـما يجـاورني

زميلي وصديقي د. «آرثر ويبرو»، الذي أمكث معه في نفس السكن حاليًا فنظر إليَّ ونظرت إليه ماذا يحدث ؟

والكثير من الأطباء معنا من السوريين الذين كانوا يُطلق عليهم من قِبل الألمان بالأطباء السوريين الثروة الهاربة لجدارتهم ولجدهم وتفوقهم في تخصصاتهم والجزائريين، وكل مختص في المستشفى.

فقام د. «هاينرش باري» بانفعال شديد من كان مناوبته أمس في قسم التوليد ؟ فقالت د. كريستينا بصوت مرتجف أنا

– هممم أين كنتِ أيتها الطبيبة في الساعة الثالثة والربع صباح اليوم؟

– كنت في مناوبتي أتفقد مرضاي .

– إذن فلتنظرو جميعًا أيها الأطباء أمامكم على شاشة أجهزة المراقبة عم صوت ضجيج ما هذا ؟ ماهذا ؟ إنها صورة إحدى عاملات النظافة أمام صندوق قمامة، إذ به طفل رضيع حديث الولادة عاري ملطخ بدماء أمه وكان لا يزال معلقًا في حبله السري.

فنادت العاملة تصرخ إلى أن تقدمت إليها إحدى الممرضات تأخذ الطفل وتدخل به إلى الداخل، وأجهزة

الاستقبال الالكتروني تنادي باسم د. وينر طبيب الأطفال فيفيق مضطربا يأخذ الطفل ويخبرهم بأنه مولود منذ ساعة، ولديه بعض الكدمات في عنقه وكسر في ذراعة الأيمن ويدل ذلك على أن من قام بتوليده ليس طبيبًا محترفا.

- د. كريستينا ماتيس أين والدة ذاك الطفل ؟

- د.هاينرش لم أولِد طفلاً بهذه المواصفات أمس، وكانت آخر عملية لي الساعة الخامسة عصرًا، ولم يكن لدي عملية ولادة لذكور أمس وهذه هي تقاريري الطبية، وقد قمت بثلاث عمليات توليد لإناث .

- ماذا نفعل بذاك الطفل ؟

- إنه مريض ولايجب خروجه من المستشفى، ولكن يجب علينا إخبار الشرطة .

- لم تبين لنا أجهزة المراقبة أي شيء؟

- ومن وضع ذاك الطفل في صندوق القمامة .؟

- أمه ؟ لا لا يجدر لإم أن ترمي طفلها في صندوق القمامه، ولما تلقي به والقانون الألماني يسمح أن يأخذ الولد كنية أمه، إذا لم يود الأب ذلك .

– د. هانيرش !! الرجاء الهدوء وكفو عن هذه الأسئلة .

– د.هانيرش مرة أخرى !! تفضل د. مراد أود أن تسمح لي بإجراء مكالمة هاتفيه للبيت ؟ د. مراد ؟! فلتسمح لي .

– مرحبًا يا عزيزتي

– مرحبا ياعزيزي كيف حالك ؟

– أأنتهيت من اجتماعك؟!

– لا .

– ولكن كيف حال تلك السيدة ؟ أرى أنها بخير .

– حسنًا .

– إذا أرادت منكِ الرحيل فلا تسمحي لها .

– لماذا ؟؟

– افعلي ما أمركِ به .

– د. هانريش والدة الطفل أعرفها !! ماذا تقول ؟؟

– عند انتهائي من مناوبتي استقليتُ سيارتي من البوابة الشرقية للمستشفى ؛ كي آخذ الطريق الشرقي فهو أقصر المسافات لبيتي فوجدت امراة، وعندما أشعلت أضواء

السيارة وجدتها تقع أمامي فحاولت مساعدتها في النهوض، ولكنها طلبت مني بعدم أخذها إلى المستشفى وهي الآن في بيتي فاجعلني أذهب إليها وأعرف منها الأمر .

- هل تود ذهاب أحدنا معك ؟ لا، فإن لديها مشكلة ما ؛ لأنها رفضت أن أدخلها المستشفى كما أن شيئًا يمنعها بالاعتراف بالطفل.

- حسنا وهذه مهمتك.

- ستذهب الآن ؟! لا فلدي مريض يجب أن أراه قبل أن أغادر .

- مرحبا ياعزيزتي .

- مرحبا ياعزيزي .

- كيف حال أميرنا ؟ تقصد كيف حال أميرتنا .

- وفي كلا الحالتين بخير .

- أين هي المرأة ؟ مراد ماذا تريد منها ...

- مرحبا كيف حالك ؟

- بخير .

- ألا تودين إخباري ! يمكنني أن أساعدك !

– لمَ فعلتِ هذا بطفلكِ ؟ كفي عن دموعك أرى أنك أنثى مجردة من الحنين والأمومة لتتركي طفلك في صندوق القمامه مثلما فعلتِ.

– لمَ؟

– من أنتِ؟

– سأقص قصتي ولكن أود أن تساعدوني !

– أجل سنساعدكِ أليس كذلك يا مراد ؟

– أنا امرأة دمشقية أتيت إلى ألمانيا لاجئة ضمن اللاجئين، قبل الرحيل من بلادي كنت أدرس الصحافة وتعرفت على شاب سوسري عن طريق صفحات التواصل الاجتماعي، وأخذنا الحديث حتى تطورت الأمور بيننا وأصبحنا نتحدث في الهاتف باللغة الإنجلزية كي نفهم بعضنا البعض ووقعنا في قصة حب وحدث ما حدث في بلادي واضطررنا بمغادرتها خانعين هاربين، ولم أنهي دراستي بعد، ولما قررت أسرتي مغادرة بلادنا أصبحنا في نقاش إلى أي دولة تتيح لنا اللجوء إليها من تركيا أو ألمانيا أو كندا .

وحدثته كي أخبره بما حل بنا فأقنعني باللجوء إلى ألمانيا فهي قريبة منه، ويمكن أن نتواصل سويا ونبحث عن

عمـل سـويا، وتتيـح لنـا ألمانيـا جميـع الفـرص وأقنعـت أهـلي بالذهـاب إلى ألمانيـا .

وتلاقينـا وعملنـا سـويا وسـكنت أنـا وهـو في سـكن واحـد بعيـدا عـن أسرتي، ووقعـت في حـب ميئـوس قـد رأيـت فيـه أن علاقـة الحـب أقـوى مـن علاقـة الجسـد، ولكننـي كنـت مخطئـة رضخـت لعلاقـة غـير شرعيـة مـع الشـخص الـذي أحببتـه بعدمـا أشـعرني بأننـي كفتـاة شـعر نـزار قبـاني .

أشـعرني أننـي الأنثـى الملائكيـة البشريـة الوحيـدة المتحكمـة في أوجـاع جميـع الرجـال، أنـا مـن التـي مـن أجلهـا فتـح فناجيـل القهـوة في الليلـة آلاف المـرات، تلـك المـرأة المصلـوب في عينهـا جميـع الأحبـاب، التـي مـن أجلهـا مشـط أرصفـة الطرقـات، أن أكـون بنـت سـلطان كبـار ملـوك الجـان، جعلنـي ملهمـة قاسـم أمـين التـي مـن أجلهـا حـرر جميـع النسـاء مقابـل أن أنظـر إليـه مـن نافـذتي .

- إيـمان : مـاذا حـل ياعزيـزتي ؟ لمَ تدمعـين أهدئـي أرجـوكِ. إن حالتهـا يرثـي لهـا .

- ششش إهدئي ارجوكِ.

- أجب على هاتفك، مرحبًا د. مراد .

- مرحبا برفيسور هانريش .

- لقد هاتفتك من أجل أن أبلغك أن الطفل قد تُوفي إثر برد داخلي شديد، توقف قلبه كما أصيب بحمى تلوثيه عندما تم وضعه عاريًا في صندوق القمامة، وهانحن نتصل بالشرطة كي تقوم بأمورها وإجراءتها مع الطفل وأمه، وربما تأتي الشرطة لديك كي تأخذ المرأة .

- ماذا فعلت مع السيدة ؟

- إنها تقص لي قصتها .

- حسنًا إلى اللقاء .

- إلي اللقاء .

- ماذا حدث ؟

- لمَ تجردتِ وخلعت مشاعر أمومتك بكل سهولة، فبتصرفك مع طفلك بهذا الشكل قد أوصله إلى وفاته، لمَ ألقيت به عاريًا في صندق القمامة، ومن هي أو هو الذي قام بتوليدك ؟

- هيااا أجيبي

- مات طفلي؟!!!! أتستهزئين أليس كذلك !

- إلى أين ذاهبة ؟

- لأرى ابني .

- ههههه ترى ماذا وطفل ماذا ؟

- لا تنظر إليَّ هكذا أعرف أنك تلومني وأنني أم وأنثى سيئة، ولكن كل ما أردته أن يأخذ أحدهم ابني ويعطف عليه أو يتبناه فيأخذ الجنسية واللقب والعيشة الألمانية المريحة التي لاتعرف أنثى لاجئة تحقيقها لطفلها، كان يستحق أباً يحمل اسمه ويدخله أفضل المدارس، ويعيش ويتعايش كفرد ألماني تتيح له جميع الفرص.

- مراد ! كفاك تحامل عليها، من قام بتوليدك ؟

- شعرت بمغص شديد لم أتحمل الجلوس أو الوقوف فو ضعت غطاء الرأس ونزلت من البيت أسير لا أعرف إلى أين، ولكن كلما أخطو خطوة أنظر في أعين الناس أراهم ينظرون إليَّ في شفقة، ولم يحاول أحد مساعدتي إلى أن أوقف أحدهم سيارته قائلا بألمانية :

- هل من مساعدة هيا اركبي ووضعني الرجل أمام صرح طبي وتركني أمام بوابة المستشفى بقليل قائلا :

- لا يجدر لي الدخول من هنا فهذه خاصة بالأطباء فقط، ولما اعتذرت منه بعدم امتلاكي أي نقود ذهب تاركا لا بأس فهذه ليست سيارة أجرة، ينعم الرب طفلك حياة سعيدة، ولم تتحمل ساقي في حملي، ولكن كل ماشعرت به أن شيئا سائلا ينزل بغزارة حتى وقعت أرضًا ورأتني إحدى الفتيات التي تتعلم التمريض وقررت مساعدتي ووراء جدار اسندت ظهري قائلة: انتظريني هنا وبسرعة أتت بمقص وملقط ومشبك معقمين ووسادة صغيرة .

- إنني لم يسبق لي أي عمليات ولادة، ولكن حضرت الكثير منها مع الأطباء لمساعدتهم، واسمعيني جيدا لا تتلفظي باسمي مهما بلغ بكِ الأمر فأنا هنا من أجل دراسة التمريض وأن من ألحقني بهذا العمل في هذا الصرح أرجوكِ فأنا لا أريد غير مساعدتك. برفيسور أيمن الكاحلي برفيسور في الطب سوري الجنسية وماهو إلا محاولا مساعدتي فقط وينظر لي نظرة مستقبل باهر.

- هيا تحدثي من قام بتوليدك ؟ ماذا حدث عندما أوصلك الرجل أمام المستشفى ؟ وشعرت بنزول السائل الميسر لعملية الولادة؟ آهٍ آهٍ آهٍ إعذراني

- أيتها السيدة أيتها السيدة إلى أين تذهبين ؟

- مـراد لقد ذهبت السـيدة وهاهي تركـض إلى بوابة الحديقة .

- انظـر لقـد أغـشي عليهـا، ومـن هـؤلاء إنهـم الشرطـة، ابتعـدو ابتعـدوا فأنـا طبيـب يمكننـي أن أرى نبضهـا فابعـدوا عنهـا مـن أجـل زفيركـم .

- انظر لقد نزفت .

- إنها ماتت بسبب حُمتها النفاسية.......،

- مـراد ! ششـش كفـي عـن بكائـكِ، لقـد أشـفقت عليهـا مما جـرى لهـا ولتعلمـي إذا كانـت في بلادهـا وأوطانهـا كانـت قتلـت مـن أجـل عارهـا وتـشرد الطفـل أيضًـا، وإذا ترعـرع نشـب عـلى السـب بأمـه.

- ولمَ يفعل معها الشاب هكذا؟

- لأن شـباب الغـرب عامـة ذكـورا وإناثـا يـرون أن الحـب لا يكمـن في الـزواج وأن هـذه العلاقـات علاقـات عابـرة لا تغـير مـن مفهـوم الحـب مثلنـا، فالحـب لديهـم أن يتعايشـا الاثنـين فـترة مـن الخلاعـة ويسـتمتعا بوقتهـا كيفـما يشـاؤن غـير مقيديـن بضوابـط أو قانـون لأن القانـون في أوروبـا لا يمنع تلـك العلاقـات غـير الشرعيـة بالنسـبة لنـا لذلـك جعـل لـلام حـق تسـمية ابنهـا عـلى كنيتهـا الأصليـة، وإنـما الحـب لديهـم

بعدما يتعايشوا لفترة إذا أرادو استكمال حياتهم سويا لمجرد أن لا يتمكن أحدهما العيش بدون الآخر في هذه الحالة تبني فكرة الزواج وبعد إثبات زواجهم في هيكل أو في كنيسة يصبح له الحق في نسب الرجل ابنه له .

– الحمد لله الذي أتم علينا نعمة الإسلام .

– أجل الحمد لله، ولتعرفي كان من السهل جدًا أن تقعي في خطأ مثله، ماذا ؟ تمزح أليس كذلك ؟

– كلا . عندما أتيتِ مع لارا في خطبتها رآكِ زميل لنا ذاك الشاب الذي تقدم نحوك أمام الكنيسة وسألك عن اسمك فأجبتيه حواء، لم أتذكره .

– ولكن ماذا حل بعد؟

– أتاني يسألني عنكِ واصفا ملامحك ولما ازداد الأمر في وصف جسدك عندما تخيل أنك لو ترتدي تلك الثياب المكشوفه .

– وماذا بعد ؟ لاشيء لقد لكمته إلى أن فقد فك فمه السفلي .

– ماذا ؟

– هيا إلى الداخل كي لا تبردين.

وبعـد عـدة أشـهر رزقنـا بطفلـة جميلـة بعدمـا اتفقنـا عـلى تسـميتها «ريفـال» مصابـة بمتلازمـة داون كانـت في البدايـة رافضـة حملهـا أو ضمهـا، وكل مـا هـي عليـه مـن البـكاء الشـديد والانهيـار محاسـبة نفسـها أنهـا السـبب فيـما حـدث مـع طفلتهـا وأخبرتنـي بأنهـا كانـت تخفـي أمـرًا بـأن أسـامحها ؛ لأنهـا كانـت سـجينة ذاك اللعـين ولم تخـبرني وأنـا أدرك، ولكـن ثقـل لسـاني عـن النطـق كانـت دائمـة القـول :

أننا مجرد مسافرون عابرون في هذه الحياة .

- ماذا تفعلين ؟ أعد بعض الطعام، ألا ترغب ؟

- لا، ولكـن أريـد قهـوة وسأحتسـيها معـك هنـا عـلى طاولة المطبخ .

- أجل على الفور، وها هي قهوتك تفضلها.

صوت فنجان القهوة على الارض وهي أيضًا سقطت معه.

- كيف تشعرين الآن ؟

- متعبة

- لا تتحركـي سأسـاوي شـعرك مـا هـذا لقـد ارتفعـت حرارتـك

- سأهاتف الطبيبب .

- لا لا فإني أريد الخلود إلى النوم

- هـل ترغبـين في النـوم؟ فأومـأت برأسـها وحملتهـا إلى غرفتنـا وفتحـت أغطيـة الفـراش وأدلفـت إلى الفـراش بجانبهـا وأسـندت رأسـها عـلى كتفـي ونامـت بعمـق حتـى الصبـاح سـاهرًا بجانبهـا محملقـا لوقـت طويـل في الحائـط المقابـل واسـتيقظتْ .

- هـل تشـعرين بتحسـن .؟ أسـألها بعينـي المرهقتـان اللتـان لفتـا انتباههـا .

- نعـم أشـعر بتحسـن، وسـوت شـعرها إلى الخلف وشـبكته بمشـبك فـضي ثقيـل، وكانـت تبـدوا، صافيـة الذهن، رشـيدة .

كانـت تمـشي مشـيا خفيفـا كـي لاتنكـسر هشاشـتها وتمـضي أمامـي ثقيلـة كـي لا تطـير.

وبعـد إنجابهـا الطفلـة كانـت تـزداد سـوءًا، فقـد دمرهـا ذلـك اللعـين تدمـيرًا فأخذتهـا إلى مـصر ومكثنـا في بيـت أهلهـا بعدمـا وجدنـا أن جسـدها لا يسـتقبل العـلاج الكميائـي ولا يجـوز أن تخضـع لعمليـة جراحيـة بعدمـا نظـر لي الطبيـب في إشـفاق قائـلاً:

- النتائج غير مجزية فاتضح لنا في هذا التحليل بأنها الأعراض الشائعة لسرطان الدم «اللوكيميا»، وهو نمو غير طبيعي لخلايا الدم التي تنتج من نخاع العظم، وفي الغالب تكون كرات الدم البيضاء حيث لا تستطيع هذة الخلايا القيام بوظائفها بالشكل المطلوب، وتستمر الخلايا السرطانية بالنمو والانقسام حتى تتزاحم الخلايا الطبيعية وتتغلب عليها، وهذا يؤدي في نهاية المطاف إلى عدم قدرة الجسم لمحاربة العدوى ووقف الأكسجين - فتلعثمت بشدة سائلا :

- وفي أي مرحلة هي، في نفس اللحظه لسؤال لارا بعدم فهمها شيء.

- رد قائلا: سرطان الدم عدة ويختلف بأنواع الخلايا المسرطنة على مدى تطور سرعة المرض، وأشهر هذه السرطانات أبيضات الليمفاويات الحاد، وابيضاض الليمفاويات المزمن، وابيضاض نخاعي حاد، وابيضاض نخاعي مزمن، فقاطعته لارا : ومن أين أتى إليها ؟

- يأتي من أقل الأسباب، ومنها الأسباب الفيروسية، والمواد الكيميائية كصباغة الشعر والتدخين .

- أجل، ولكنها لم تعرض شعرها للصبغ كيف أتى؟

- يأتي من أدق الأشياء، كما أنها في المرحلة الأخيرة منه.

ثم اكتشفنا أنه أتاها من أعلى فرشاة أسنانها المكشوفة .

ومعنا الطفلة التي كانت تحمل الملامح المنجولية، كانت تمتلك ذات نفس النحبة السوداء التي كانت تصغر العملة المعدنية بقليل المتواجدة أعلى ظهرها تتجة ناحية كتفها الأيمن مثل أمها، وتركتنا كسندريلا، وكأنها مُجبرة على الرحيل تاركة قلبها وراءها وأخذت قلبي معها، ذهبت وهي حاملة شعور ذنب طفلتها، تركتنا هاربة كالموريات قدح نحو حياتها الأبدية.

أتممت حياتي الدراسية في ألمانيا، ومكثت بها أكثر من اثني عشرة عامًا، ولم أشعر بأنني مغترب هنا سوى الآن، توفيت ليلا حيث كان القمر مكتملا ناصعا يضيءالسماء، وفجأة حلت عليه سحابة سوداء فجعلته كالمختنق فلم يأتي عليها الصباح وتوفيت بقريتها في مصر.

ماتت دون أن تعرف أنني كنت مدركًا للأمر من قبلها.

وغادرتُ أحمل الطفله إلى برلين التي كلما نظرت إليها أدمعتْ عيني، فيها بعض التفاصيل الصغيرة منها، ولكن كانت كثيرة الرائحة التي كانت تشبه رائحتها في استرخائها

وفي مرضها وعيشت وتعايشت مع صغيرتي بمفردنا .

وكان الفضل لله ثم للعم يس الذي قد تحمل معظم المسؤلية فهوالذي قد علمني وعلم إيمان كيف حب وتربية الأطفال، فكان كلما رآها عابثة الوجه تتداعبها وهي في يده خشية حملها فيقول لها العم يس: أطيب الحديث عن الأمومة حتى جعلها تحملها وتركض بها يمينا وشمالا حتي توفيت الطفلة بعدها بثلاثة أشهر، وكأنها طائر حن لجوف سمائه فذهبت تغرد في أحضان أمها يحتويهما القبر.

آآه

كم أتمنى لو ألتقي بساحرة طيبة تدخلني صندوقها المسحور تحركني بريشتها السحرية، وترجعها إليَّ وترجعني لها ونتعايش الحياة في رقصة هادئة.

ففقدها كفقدان طفل سوري يحمل لعبته الملطخة بالدماء، كالذي إذا مر على قوم رأى في أعينهم الشفقة والمنة على حاله الدامي.

فكان موتهما كالرجفة الكبري والآن أنا أحيا على ذكراها كضباب ساعات الفجر تذهب أيامي مع كل صباح يمضي بدونها..............

وفجأة رن هاتف مراد: أجل.

نحن من مجال الجوائز السنمائية نريد حضوركم لاستلام جائزة أفضل فيلم وأفضل موسيقي التي هي من تأليف حضرتكم وانقطع الهاتف....

وفي نفس الوقت آتى بريد إلى عمر ومعه تذكرة ذهاب وإياب إلى برلين.

واستغرق تمثيل وتصوير هذه القصة كفيلم سينمائي الأول لي سنة ونصف

وهاتفتني وكالات الأنباء والصحافة بعدما حدثتني أشهر منظمات الجوائز العالمية.

وقدّمت دعوة لد. مراد لحضور حفل الجوائز وفرح جدا بمؤلّفاته الموسيقية التي دخلت في العمل التي كانت مستوحاة منها، وعند استلامي الجائزة، جائزة أفضل فيلم سينمائي أردت أن أهدي هذه الجائزة للأبطال الحقيقيين لهذة القصة ولأول مرة تقابلا كل من عمر ومراد وتحدثا سويا متفوهين نفس الحديث «من أين لنا أن نأتي ببديل لها ؟ وتمر السنين ولم يبقَ في القلب سواها.

فـما نحـن إلا قلـوب قـد اهـترأت مـن الحـب حتـى أصبحت وَ جِلةُ »

ومـن هنـا علمـت أن الحيـاة ليسـت كفيلـم سـينمائي فقـط يمـر عـلى حياتنـا الضالـة، ولكـن يجـب أن يكـون مـارا في حياتنـا كجـمال الـروح الـذي يبقـى ولايذبـل ولا يضيـع مـع العمـر، بـل يزيـده عـماراً ونضـارةً وطيبـاً.

سندرا نذار !؟ مبارك لكِ نجاح فيلمك الأول

أوه أهلا مايكل شكرا لحضورك الحفل .

.........تمت

ندى نوفل

التواصل مع داركتاب

Email: darkitabone@gmail.com

fasbook: darkitabone

البدج داركتاب

٠١٠٩٧٥٥٣٣٢٨